قصتي
مع سيد قطب

الشيخ
مصطفى كامل محمد

المحتويات

مقدمة ٣

الفصل الأول تمهيد ضروري ٥

الفصل الثاني اللقاء الرائع ١٣

الفصل الثالث سيد قطب والحركة الإسلامية ٣٩

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ (الأحزاب: ٧٠).

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ (النساء: ١).

ألا إنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ألا وإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة.

أمّا بعد...

فهذه ورقات تحكي قصّتي مع مجدّد هذا القرن الرابع عشر الهجري الأستاذ سيّد قطب، والفرق هائل بينه وبين من سبقوه من الدّعاة إلى الله ومن مؤسسي الجماعات التي تدعو إلى الإسلام، وفي ظنّي أنهم لم يكونوا إلّا ممهدين لظهور هذا المجدّد العظيم، وكانوا أقرب إلى أن يكونوا موقظين للتوجه الإسلاميّ، يوقظون أولئك النّوّم حتّى يستطيعوا أن يفقهوا عن ذلك المجدّد حينما يأتيهم.

وليس في هذا القول أدنى مبالغة، فالذي يدرس ما كتبه الإمام حسن البنا، وكذلك الأستاذ أبو الأعلى المودودي، يدرك تمام الإدراك أنّ هناك ثمة شيء لم يكتمل، وأنّ نقصا واضحا في البناء لم يجبر، سواء في المجال النظري، أو في المجال العملي التطبيقي لهذه الجماعات والحركات التي سبقت ظهور الأستاذ سيد قطب على الساحة، من خلال كتاباته الأخيرة، ومن خلال محاكمته التي انتهت باستشهاده...

وليس المجال هنا مجال حديث عن تلكم الحركات الإسلامية السابقة التي هي أشبه بمحاولات جادة لسلوك طريق إسلامي صحيح، فسوف نفرد لذلك بحثا أو بحوثا إن شاء الله نتحدث فيها عن مقومات حركة البعث الصحيحة، ومن خلالها نستطيع أن نقوّم الحركات الإسلامية التي حاولت أن تقوم بالدعوة إلى عودة الإسلام من جديد، بدءا بدعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، ونهاية بالأستاذ البنا وما انبثق عنه من حركات واتجاهات.

أمّا في هذه القصاصات العاجلة، فسوف أحكي قصتي منذ أن التقيت بأستاذ الجيل سيد قطب إلى آخر قصّتنا مع الجماعة الأم " الإخوان المسلمون ".

وسوف ألتزم إن شاء الله بألّا أثبت في هذه القصة إلّا ما أستيقنه من الأحداث والأقوال والأحاسيس، أمّا الذي يشوبه غموض أو يطاله شك فسوف أتجاوزه، وسيكون – غالبا – في أمور ثانوية أو أحداث هامشية ممّا لا يؤثّر في عرض الأحداث والحقائق.

وسوف أتناول هذا الموضوع حسب التقسيم التالي:

أولا: تمهيد ضروري يسبق لقائي بالأستاذ سيد، أصف فيه حالتي مع نفسي ومع جماعة الإخوان من حولي، والتي ساهمت في التمهيد لهذا اللقاء الرائع مع المجدّد العظيم، والذي غيّر مسار حياتي تغييرا جذريا، سواء في عالم التصورات والأفكار والمبادئ، أو في عالم الواقع، على المستوى الشخصي وعلى المستوى العام، في مجال الدعوة والحركة، وفي مجال العلاقات والارتباطات، بل في مجال الحياة الخاصة بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة.

ثانيا: وقائع ذلك اللقاء، وكيف حدث، ولماذا؟ ثمّ كيف تلقيت هذا الحقّ، وكيف كانت آثاره في نفسي وفي حياتي.

ثالثا: ماذا حدث بعد ذلك اللقاء إثر رجوعنا إلى سجن القناطر، وكيف قمنا بتبليغ هذا الحقّ، وما واجهنا من عقبات وأحداث.

والله أسأل أن يوفّقني إلى الخير ويلهمني السداد والتوفيق، فإنّه لا حول ولا قوة إلا بالله وبه نستعين، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

ولنبدأ بحول الله وقوته في سرد أحداث القصة العجيبة.

فإلى التفاصيل...

الفصل الأول

تمهيد ضروري

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩)

لقد كان اللقاء بالأستاذ سيد قدرا من أقدار الله، ككلّ شيء يحدث في هذا الوجود، فالفلتة والمصادفة ليس لهما مكان في كون الله العظيم، فلا شيء يندّ عن علم الله ولا مشيئته، ولا يحدث شيء صغير أو كبير في هذا الوجود إلّا وتسبقه الإرادة الفاعلة والتقدير المحسوب.

والإنسان المسلم يستيقن هذه الحقيقة، فيرى من خلالها الأحداث كلّها، تمسكها وتحركها يد القدرة، فيطمئنّ ويهدأ، ويمضي متوكّلا راضيا بكلّ ما يصيبه من أقدار، وما يجري عليه من أحداث.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ٥١).

ولقد سبق ذلك اللقاء مواقف وأحداث، ومشاعر وأحاسيس، وآلام ومعاناة، كان من نتاجها أن أعطت لهذا اللقاء خطورة، وأسهمت في التلقي الجديد، وفي إدراك كلّ الأبعاد المترامية، والأعماق البعيدة لما جرى في ذلك اللقاء الذي يعتبر بحق مفرق طريق.

وسوف أحكي باختصار شديد أهمّ هذه المواقف والأحداث والمشاعر، حتّى يتفهّم القارئ معي مدى ذلك التفاعل الهائل الذي أنتجه اللقاء بالأستاذ سيد، ويدرك الأسباب التي كانت وراء هذا التفاعل، حتّى لا نتصوره تفاعلا عفويا، أو انبهارا لحظيا، أو انطباعا تحت ضغط الإعجاب بذلك الرجل العظيم، أو أن تكون مجرد الرغبة في التغيير والبحث عن الجديد...

كلّا لم يكن الأمر كذلك، وإنما جاء هذا اللقاء في توقيت دقيق، حين كنت أشعر بالحيرة الكاملة وبالضياع الحقيقي، وبالإحساس بعدم الثقة في كلّ شيء حولي، وكنت دائم التلفت بحثا عن الحقيقة التي لم تظهر لي جلية واضحة، عميقة مؤثرة، مقنعة حاسمة، إلّا بعد لقائي بذلكم الرجل العظيم سيد قطب...

لم أحب أحدا قبل سيّد قطب كما أحببت الإمام حسن البنا، ولم يمتلئ قلبي بالإجلال والاحترام كما امتلأ بهما لذلك الإمام الشهيد...

وكنت – وما زلت – حين أرى صورته، وأتعمق في ملامحه، أحسّ بالحبّ الشفيف، والفرح الطفولي، وبالشوق الحاني إلى ذلك الرجل العظيم الذي لم يقدّر الله لي أن ألقاه، وأن أستمتع بمصاحبته.

وحين كنت أقرأ رسائله الكثيرة، أو أسمع حكايات الناس عنه، كنت أمتلئ إيمانا بصدقه وإخلاصه – وما زلت – ولذلك، عندما أصبحت عضوا عاملا في جماعته، وأصبحت فردا من أفراد النظام الخاص، كنت شديد الولاء لهذه الجماعة ولمبادئها وأفكارها.

ورغم سني الصغير نسبيا حينذاك، حيث إنني قد دخلت الجماعة في سنّ الخامسة عشرة، إلا أنني كنت شديد الملاحظة لكلّ ما يدور حولي... وبجانب كلّ الإيجابيات التي كنت أعيشها وأستمتع بها، كنت ألمح بين الحين والآخر سلبيات في السلوك والتصرف من شخصيات مهمة في دائرة عملي في الجماعة، ثمّ بعد ذلك على مستوى الجماعة ككل.. ولكنّ هذه السلبيات – على تكاثرها مع مرور الزمن ومع تقدّم الوعي – لم تكن تدفعني إلى الوراء، أو إلى التقهقر، فلقد كانت الإيجابيات كثيرة، وكان ولائي للجماعة وقيادتها عميقا، وكانت حاجتي أيضا لهذه الجماعة هائلة تبلغ حدّ الضرورة، فلم أكن أتصور أن أعيش بعيدا عن هذه الجماعة ولا عن إخواني فيها.

وكانت هناك صدامات تحدث مع الوالد بسبب علاقتي بالجماعة، وبسبب استغراقي الكامل فيها، بحيث لم يبق وقت لأهل أو أقارب، ولكنّ هذه الصدامات لم تمنعني أبدا من مواصلة السير والعمل مع هذه الجماعة، بل لقد كنت مستعدا دائما أن أضحي بأهلي في سبيل الله.

وأضرب بعض الأمثلة السريعة للسلبيات التي كنت ألحظها:

فمثلا؛ كنت ألحظ أنّ كبار المسئولين عن المكتب الإداري، وبعض الدعاة الكبار، ليسوا على مستوى ما يقولون، وما يدعون إليه، حتى أنني قدمت عريضة احتجاج على بعضهم، وحدث تحقيق فيها، وكان لرأيي ما يفسره ويبرره، ولقد تكرّر هذا في أكثر من مكان ذهبت إليه. فقد كنت أرى أنّ هؤلاء الرجال الكبار ليسوا مقنعين.

كذلك – وهذا مثل آخر – لاحظت وشممت رائحة الشقاق، أو ما كانوا يسمّونه جيوبا في الجماعة، فقد حدث أن اتصل بي أو التقيت بشباب كانوا يطلقون على أنفسهم " الشباب المسلم "، وكانوا أفرادا في الجماعة، وكانوا يتميزون بالثقافة الواسعة وبالخلق الطيب وبالحماسة الكبيرة للإسلام، غير أنهم كانوا يخالفون الجماعة في عجلتها في استعمال القوة والاستعداد بها قبل طور التربية الطويل، وكنت لأول مرة أقرأ من خلالهم كتب الأستاذ أبي الأعلى المودودي.

ورغم علاقتي بهم، واحترامي لهم فإنّ ولائي الكامل للجماعة لم يتأثر، وأخذت الأمر على أنّه نوع من الاجتهاد لبعض الأفراد في الجماعة، وكنت أراه اجتهادا لا بأس به، وإن لم أتعمق كثيرا في دراسته بسبب صغر

سني من ناحية، وبسبب تلاحق الأحداث من ناحية أخرى، وكذلك بسبب انشغالي في العمل الحركي وفيما كنت مكلفا به.

ولكن لم يخفت أبدا أثر هذه المجموعة في نفسي، رغم علمي – فيما بعد – انحراف أكثرهم عن السبيل الذي دعوا إليه.

ومثل آخر؛ ذلك الحدث المثير الذي جاء على شكل تمرد على مرشد الجماعة، ومحاولة احتلال المركز العام، والهجوم على بيت المرشد ومطالبته بالاستقالة.

لقد كان ذلك الحدث نقطة بارزة في نظرتي إلى الجماعة؛ كيف يمكن أن يصل أمر الخلاف إلى هذا الحدّ الرهيب؟ خاصّة أنّ ذلك قد حدث بعد قيام ثورة يوليو، وكانت الحكومة تتربص بالجماعة، وقد عرفت فيما بعد أنّ الحكومة كان لها يد في هذه الأحداث، وقد ترتّب على ذلك فصل بعض القيادات التي شاركت في هذه الأحداث، ومن أهمها قائد النظام الخاص، وبدأت المشاكل تتفاقم في وقت كانت الجماعة تستعدّ للمواجهة مع الثورة ورجالها.

ثمّ كانت المواجهة التي أصابتنا نحن الشباب بصدمة عنيفة. فقد كنّا شديدي الثّقة بأنّه في إمكان الجماعة أن تقف أمام الحكومة بقوة، وأن تنتصر عليها، وكنّا نحن شباب النظام الخاص نظنّ في أنفسنا القدرة الكاملة على إحداث هزيمة مروعة وسهلة في نفس الوقت بأية حكومة، ولكن لم يحدث شيء من هذا، وقبض على الجميع، واختفى المرشد العام، ثم قبض عليه، ثمّ بدأت المحاكمات التي أسفرت عن نقاط ضعف كثيرة في جسد الجماعة العريضة، فقد وقف وكيل الجماعة أو نائب المرشد موقفا مخزيا، وتبعه آخرون، وإن كان ذلك لا يقلل من تلك الوقفات الشامخة للبعض الآخر.

ودخلت الجماعة السجون وبذور الخلاف تصاحبها، أمّا بالنسبة لي فقد تأخّر القبض عليّ عدة شهور، كنّا نحاول فيها أن نعمل، وأن نلمّ شعث الجماعة ممّن تبقّى منها في الخارج، ولا شكّ أنّنا كنّا نعمل في جوّ صعب وإرهاب شديد، ولكنّنا كنّا متحمّسين، بل كنّا ضائقين بأنّنا لسنا مع إخواننا في أعماق السّجون. ثمّ قبض علينا والتحقنا بالسّجون مع إخواننا الذين أصبحوا بالنسبة لنا روادا سابقين في هذه السّجون، والحديث عن هذه السّجون والحياة فيها له مكان آخر غير هذه الوريقات، ولكنّ الذي أثبته هنا أنّ السّجن مدرسة هامة جدا في تربية الإنسان صاحب المبدأ، وخاصة إذا كان مسلما، وأنّ السّجون ليست كلّها تعبا وعذابا، ولكن تمرّ فيها لحظات طويلة مملوءة بالسعادة والنعيم، ولا شكّ أنّ أشياء كثيرة لا يمكن أن تفهم ولا تهضم ولا تؤثّر إلا من خلال المحنة ومن خلال المعاناة، بل أكاد أجزم بأنّ جوانب من الشخصية الإنسانية لا يمكن أن تنضج إلّا من خلال البلاء.

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {٢} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢،٣).

وفي السّجون، ومن خلال الفراغ والمعاناة والحرمان، بدأت أصوات كثيرة، صغيرة وكبيرة، حقيرة وعظيمة، تسطر على صفحات نفسي رؤية للجماعة ولحقيقتها، سوف أسردها بسرعة، لأنّ هذا ليس مكانها، ولكن فقط لأمهّد للحديث عن ذلك اللقاء الرائع، لقائي بسيد قطب.

كانت سنوات عمري حين قبض عليّ ثمّ حكم عليّ بعشر سنوات، كانت سني عمري وقتها تسعة عشر عاما، ولن أكون كاذبا ولا مبالغا حين أقول إنّني كنت شديد السعادة وشديد الفرح وشديد الاعتزاز بذلك الحكم الذي حكم به عليّ. وكنت أدلف إلى عالم السجون تصاحبني مشاعر الرّضا والحمد لله أن أصبحت من عباد الله الذين اختارهم ليبتلوا في سبيله، وكنت أستمتع بكلّ لحظة من لحظات حياتي في ذلك المكان الجديد.

دخلت السّجن وقد ارتسمت في مخيّلتي أحلام زاهية وأمان جميلة. ولقد تصوّرت أنّنا حين تجمعنا السّجون أنا وإخواني الذين التقوا في الله، واختاروا طريق الحقّ وتعاهدوا عليه، أنّنا سوف نقيم مجتمعا مثاليا يذكّرنا بمجتمع صحابة رسول الله ﷺ، وأنّنا سوف نعيش في جنّة الإيمان بعد أن تفرّغنا تفرّغا كاملا لذلك، وبعد أن تحقّق لنا أمل الحياة سويا بلا فراق، لكي نستمتع بإخواننا، وحبّنا في الله، ونستمتع بالحياة مع الله، ونطبق تعاليم الإسلام بلا عقبات ولا مشاغل.

لذلك حينما انتقلت من سجن مصر إلى سجن أسيوط، حيث ينتظرنا هناك إخوة من السابقين، كنت أعيش في هذه الأحلام الزاهية والأماني الجميلة، وكنت أستعجل القطار الذي يجري بنا إلى المكان الجديد، أو بمعنى أدق، إلى السّجن الجديد، لنقضي فيه مدة العقوبة الظالمة، ولكنّها في حسّي كانت فرصة أتاحها الله لنا، لنتربّى على الإسلام، ونستعدّ لجولة جديدة مع الباطل، أو نقضي حياتنا فيه إلى أن نموت في سبيل الله.

ولكن بدأت الأحلام والأماني تحتضر منذ اللّحظات الأولى.

وبدأت أكتشف أنّ كثيرا من الأفراد لا يختلفون كثيرا عن النّاس العاديّين؛ في مستوى أخلاقهم، أو عاداتهم، أو لهوهم وعبثهم، وحتى ألفاظهم.. وبدأت أعيش في حالة فصام حقيقي، أحاول أن أوفّق نفسي بين تلك التّناقضات، وأقنع نفسي بأنّ الكمال لله وحده، وأنّ الأخطاء شيء طبيعي.. ولكنّي لم أقتنع أبدا، فقد كان حجم المخالفات ومستواها ممّا لا يعطي فرصة للاقتناع.. ولذا حاولت، ومعي آخرون أن نتجمّع لنصنع لأنفسنا مجتمعا نرضاه، وفعلا حقّقنا هذا الهدف، ولكن لم نلبث أن اتهمنا بأنّنا جيب داخل الجماعة، وأنّنا متمرّدون على النظام العام.

ودفعني هذا لأن أزداد عزوفا، وأزداد انعزالا، بحثا عن الحقيقة، وبدأت أجنح إلى كتب التصوف، وتتلمذت على كتب الإمام الغزالي، مع قراءة لبعض كتب ابن القيم، واستغرقت فيها حتّى أوصلتني إلى إحساس عميق بعدم واقعية هذه الحياة، وأنّ التّصوّف يؤدّي بالإنسان إلى الخروج من الحياة، والهروب من التّبعات، وعدم القيام بواجب الإصلاح، ومن ثمّ انطلقت إلى كتب الفلسفة أقرأها بنهم شديد، وأدرس كلّ معطيات الفكر البشريّ لعلّي أصل

إلى صورة أكثر واقعية، ولكن كانت الفلسفة وبالا هائلا، وأدخلتني في مرحلة شك قاتلة في كلّ حقائق الوجود. ومن ثمّ فقد ألقيت بالفلسفة، وتوجّهت إلى الله متضرّعا إليه أن يهديني إليه إن كان موجودا حقا، وقررت في نفسي قرارا عجيبا وهو أن أعطي لنفسي مهلة خمس سنين، إمّا أن أصل إلى يقين وطريق مستقيم، وإمّا أن أتخلّص من الحياة لأنّها لا تستحقّ أن تعاش.

وكنت من وراء الشّك العميق موقن بأنّ الإنسان إمّا أن يعيش في حديقة الإيمان والحياة مع خالق عظيم وإله كريم، وينتظر على ذلك جزاء في الآخرة عظيما، ويعيش عاملا من أجل الحق، وعابدا بين يدي خالقه، وإمّا أن يرمي هذه الحياة، لأنّ الحياة بدون إيمان حقيرة وتافهة، لذلك أعطيت لنفسي هذه الخمس سنوات كفرصة لي لأصل فيها إلى اليقين بالحقّ بالله، وإلّا فالاختفاء من الحياة التي لا تستحقّ أن تعاش.

وبعثت بعدّة رسائل إلى بعض المفكرين الكبار أعرض عليهم حالي وأسألهم التوجيه، ولكن لم يصلني من أحد ردا، أو لعلّ رسائلي قد مزّقها الضابط المسئول.

وفي غمرة هذا الاضطراب النفسيّ والفكريّ الذي كان يستغرقني، نبتت ظاهرة في الجماعة كان لها انعكاس هائل على نفسي، تلك ظاهرة التّأييد التي قام بها فريق من إخوة الواحات، والذين كنّا نعتبرهم القادة للجماعة، والذين كانوا يمثّلون المراتب العليا في السّلّم التنظيمي والفكري والسلوكي، والمقصود بالتأييد هو تأييد الحكومة، والتودد لها، والاعتراف بالخطأ، وطلب العفو والمغفرة من قادة الثورة، ومن ثمّ الإفراج والخروج من السّجون.

ولقد أدانت الجماعة هذا المسلك، ولكنّ هذا لم يقلّل من دلالته الظاهرة، وهي أنّ فريقا كبيرا من القيادات والمراتب العليا في الجماعة تراجعت عن مبادئها، وضعفت عن تحمّل البلاء، واستسلمت لعدوّها، طالبة الصفح والعفو، ولا شكّ أنّ هذا يمثّل – بمنطق أصحاب الدعوات – خيانة للجماعة، وردة عن المبادئ، وخذلانا للثابتين. ولقد أضافت هذه الظاهرة إلى نفسي حيرة جديدة، وخيبة أمل كبيرة، ودعتني إلى مزيد من التأمل والبحث عن الحقيقة أين تكون؟

وحدث أثناء ذلك حادث مفجع، وهو حادث طرة، حيث قتل أكثر من عشرين فردا من الجماعة بالرصاص بتهمة التمرد على إدارة السّجن. وكان هذا مؤشّرا جديدا إلى النوايا السيئة التي تضمرها الحكومة للجماعة. وكان ينبغي أن يكون هذا – في نظري – دافعا للثبات والصلابة، ولكن للأسف استمرت ظاهرة التخاذل والتأييد، وتوسعت وتسرّبت إلى باقي السّجون، وشملت كثيرا من القيادات، حتى شملت أعضاء من مكتب الإرشاد، وهو أعلى سلطة في الجماعة.

ونتج عن ذلك الخذلان والتأييد أن تحوّل بعض الأفراد إلى أن يكونوا عيونا على الجماعة، وأن يتجسّسوا على إخوانهم، ويبلّغوا عن أيّ أمر يرونه مخالفا لرغبة الحكومة، وهكذا عاشت الجماعة في حالة من التمزّق والضياع.

وليس معنى هذا أنّه لم تكن هناك صور من الثبات والصلابة، ولكن كان هناك صراع دائم، وتساقط دائم أيضا.

وكنت في هذه الفترات انتقل من سجن إلى آخر، حتّى استقرّ بي المقام في سجن الواحات الخارجة، حيث يقيم أكابر الإخوان وقياداتهم. ولقد لاحظت نفس الملاحظات التي لاحظتها من قبل؛ أنّ الواقع الفعليّ للجماعة كان مخالفا للمبادئ المعلنة.

كانت حالتي النفسية والفكرية في تحسن مستمر، حيث ابتعدت عن كتب التّصوف والفلسفة، وعشت مع القرآن الكريم حتّى حفظته، ولكن لم أكن قد وصلت إلى درجة اليقين بعد، وكنت قد قرّرت قرارا واضحا؛ أنّ طريق الإسلام هو الطريق الوحيد الذي ينبغي أن أعيش له، سواء كان حقيقة أو وهما، واقعا أم خيالا. وكنت أرى أنني لن أخسر شيئا، بل سوف أكسب على كلّ الأحوال، ذلك لأنّه إذا كان الإسلام حقيقة والإيمان حقيقة، فإصراري عليه وتشبثي به سوف يسوقني في النهاية إلى الحقّ، وحين يطّلع الله على قلبي فسوف يصلني به ويدفعني إلى طريقه.

وإن كان الإسلام وهما، فقد كسبت نفسي واحترامي لها حين أخذت ما اعتقدت أنّه يليق بالإنسان الكريم، وسوف أعيش كريما، وستنتهي الحياة أيا كانت النهاية.

ولكنّ ذلك لم يمنعني من التفكير الدائم الدؤوب بحثا عن الحقيقة، تأملا وتدبرا في كتاب الله، وتضرعا إلى الله، وقراءة في أيّ كتاب أتصور أنّه سوف يساعدني على الوصول، أو نقاشا مع أي أخ، لعلّ ذلك يفتح لي أبوابا من الخير.

والعجيب أنّ أجزاء من تفسير الظلال وصلت إلينا في الواحات، ولكن رغم قراءتي لها إلّا أنّني لم أنتفع بها، فقد كانت هي الطبعة القديمة غير المنقحة، كما أنّني كنت قليل الثقة فيما يكتبه قادة الإخوان، وسيد قطب منهم، فمن ثمّ كنت لا أحتفل كثيرا بتفسير الظلال.

وفي يوم من الأيام جاءني أحد الإخوة من كبار الإخوان، وكان يتميز بأنّه منعزل شيئا ما عن القيادات، وله عليهم ملاحظات، وكان شديد الاعتزاز بذاته، وكان يعتبر نفسه أنّه أكثر الإخوان تمسّكا بمبادئ الإمام الشهيد.. جاءني هذا الأخ وأعطاني كتابا لأقرأه، وقال لي إنّ فيه كلاما سوف يفيدني. وأخذت الكتاب فإذا هو كتاب "العمدة في تفسير ابن كثير" للشيخ أحمد شاكر.

ولقد وجدت الشيخ أحمد شاكر في كتابه هذا يتكلّم كلاما عجيبا عن قضية الجاهلية والحكم بما أنزل الله، ويرى آراء كانت كلّها جديدة عليّ، وإن كانت قريبة إلى النّفس، فقد كان يرى كفر التّحاكم إلى غير ما أنزل الله، وكفر الديار، وكفر القوانين، ويرى أنّه لا بدّ للمسلم أن يتبرّأ من كلّ هذه الأمور. ولقد وقع الكتاب في نفسي موقعا طيّبا حين وجدت فيه تلك الآراء التي تحلّ كثيرا من المعضلات التي تواجهني، وتحدد لي كثيرا من الأمور..

وفرحت بهذه الآراء وارتاحت نفسي إليها.. وشاء الله أن أعلم في نفس الوقت أنّ الجماعة تمرّر كراسة على الإخوان المرضيّ عنهم. وطبعا لم أكن منهم لكثرة مشاغباتي ومعارضاتي. لذلك أخفوا عنّي هذه الكرّاسة أنا وبعض الإخوان، ولكن شاء الله أن تقع هذه الكراسة في يدي، واكتشفت أنّ الكراسة تقرّر بصراحة شديدة وبإصرار شديد، أنّ الحكومة مسلمة ورجالها مسلمون ويحمدون الله على ذلك.

ولقد أثارني هذا الأمر جدا، وكتبت عريضة مطوّلة للأستاذ عمر التلمساني، حيث كان هو رئيس مكتب الإرشاد في هذه الفترة، وعرضت عليه مخالفتي الشّديدة لما جاء بهذه الكراسة، مبيّنا له الخطأ، وأنّ الصواب هو فيما قاله الشّيخ أحمد شاكر، وأنّني من ثمّ لن أرضى أن أكون فردا في جماعة هذا تفكيرها.

ولقد كان ذلك بداية لانقشاع الغبش عن بصري، وإن لم أكن بعد قد أدركت أبعاده وأعماقه، ولم أتزوّد بدراسة عميقة له.. ولقد نجحت الجماعة في إيقافي عن هذه الآراء بما أوردته من أدلّة مناهضة لم أستطع حينذاك أن أدحضها، مما جعلني أسكت غير مطمئن إلى ما يقولون، ولكن في نفس الوقت لم أجد عندي ما أحاجّهم به، لذلك سكتّ مضمرا في نفسي أن أبحث عن الحقّ حتّى أصل إليه.

وشاء الله بعد هذه الحادثة بشهر تقريبا أن رحّلوا مجموعة منّا إلى سجن القناطر، وكان أكثرهم من الشّباب، ليبعدونا عن تأثير الكبار، ولكي يلقوا بنا في براثن المؤيّدين الذين كانوا يعيشون في القناطر، أملا في أن نتأثّر بهم ونؤيّد مثلهم.

كانوا يدبّرون ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين.. فلقد كان وصولي إلى سجن القناطر هو الخطوة السّابقة للقائي بالأستاذ سيد.. فكيف كان ذلك؟؟

بعد أن وصلت إلى سجن القناطر بقليل، وبعد تأمّل وتفكير، وصلت إلى مقولة مؤدّاها أنّني يجب أن أبحث عن طريق آخر موصل للإسلام ومحقّق له غير طريق جماعة الإخوان.

وكان يخايل لي أنّ صياغة الإسلام من جديد بطريقة عصرية تستعمل المنطق والفلسفة والفنّ؛ من قصّة ورواية ومقالة وصحافة ومؤتمرات ومناظرات، بعيدا عن التنظيمات والجماعات والصّدامات مع الحكومات، خيّل إليّ أنّ ذلك أفضل، حتّى يشيع في النّاس فكرة واضحة عن الإسلام، ويكثر المتحمّسون له، وحينئذ نبحث عن طريقة لإقامة الإسلام في الواقع، ولذلك بدأت أولى هذه الخطوات لأجرّب نفسي في عالم الكتابة في تجربة محدودة لم يكن أمامي غيرها، وهي مجلّة السّجون التي كانت تحرّر داخل السّجون ثمّ تطبع في مصلحة السّجون، ولا أدري إن كانت تباع في الخارج أم لا.. المهمّ أنّي بدأت أمارس الكتابة في هذه المجلة في كلّ المجالات.. المقالة والافتتاحية والقصة والريبورتاجات وغيرها، حتّى أنني كتبت افتتاحية شهر رمضان أتكلّم فيها عن القوة والألم من خلال الفكر الفلسفيّ الأوربي دون أن أقحم فيها آية أو حديثا.. وكتبت أيضا قصة عن اتّفاقية إيفيان التي حرّرت الجزائر

متصورا أنّ هذا انتصار للإسلام والمسلمين.. في ذات الوقت الذي كنت فيه وكثير من الإخوان نسمع أمّ كلثوم في أول كلّ شهر، ونهتمّ اهتماما كبيرا بنتائج كرة القدم، والتحزّب للأندية المختلفة إلى حدّ العراك.

كلّ هذا في سجن القناطر، حيث كنت أحس بأنّني وصلت إلى قمّة الحيرة والضياع وعدم الثبات على شيء معيّن، ولكن مهما طال اللّيل فلا بدّ من فجر وليد.

ولقد جاءتني شعاعات لهذا الفجر الوليد من خلال حديث عابر مع أحد الإخوة، حيث حكيت له ما حدث لي مع الجماعة بعد قراءتي لكتاب الشيخ أحمد شاكر. ولدهشتي الشّديدة أخبرني ذلك الأخ (هو الأخ بدر الدّين عبداللطيف أكرمه الله ورعاه) أنّ الأستاذ سيد على هذا التّصوّر، وأنّه يكتب فيه ويدعو إليه، واستكتمني هذا الكلام.

ثمّ جاءتني رسالة من أخ حبيب عليّ، كان يعيش مع الأستاذ سيد في مصحّة طرة، يدعوني فيها للذهاب إليهم في طرة، كما أنّه يطالبني بالتّوقّف عن الكتابة، وعزّز ذلك بأنّه مطلب من الأستاذ سيد والأستاذ محمد هواش الذي كان معهم في نفس المصحّة.

في أوّل الأمر لم أرتح كثيرا لهذا الطلب، وإن كنت قد قرّرت أن أحاول الذهاب إليهم بأي طريقة لأكتشف الأمور بنفسي.

وهكذا بدأت الخيوط تتجمّع لتدفعني إلى ذلك اللقاء الرائع الذي أحدث انقلابا كاملا في حياتي، وخطّ خطّا جديدا تماما في كلّ جانب من جوانب هذه الحياة، وهذا هو موضوع الفصل القادم إن شاء الله.

فإلى الصفحات التالية.

الفصل الثاني

اللقاء الرائع

بفضل من الله الكريم سبحانه تكلّلت محاولاتي للذهاب إلى سجن طرة بالنجاح، وكتب لي طبيب السجن تقريرا لعمل أشعّة على عظام الرّكبة اليسرى بسبب بروز غير طبيعي فيها، وتقرّر أن يكون الخامس من شهر مايو عام ١٩٦٢ م هو يوم ترحيلي إلى مستشفى سجن ليمان طرة العموميّ لعمل الأشعة هناك.

ووجدت نفسي أدخل من بوابة السجن العتيد، ثمّ بعد إجراءات روتينية، وجدتني في ساحة المستشفى ليستقبلني بعض الإخوة الذين يعالجون في المستشفى وعلى رأسهم الأخ محمد يوسف هواش الذي كنت أعرفه جيّدا منذ أن سكنّا سويا في غرفة واحدة في السجن الحربي، وكنّا على انسجام كبير وتفاهم عميق، وكان رجلا متعبّدا متبتّلا، فكنت أشاركه في بعض أوراده وأحاول أن أقتدي به في تعبّده. لذلك كان شوقي كبيرا له، وفرحت وأنست أن يكون هو أوّل من أراه في هذا المكان. وبعد عناق وقبلات أخذني لنقابل الأستاذ سيد في مبنى منعزل لمرضى الصّدر والأزمات القلبية.

ووجدنا الأستاذ الجليل ينتظرنا، والتّرحاب ينطلق من أساريره، ويعانقني عناقا حارّا كأنّه يعرفني منذ زمن بعيد.. ولقد ارتاحت نفسي راحة هائلة حين رأيت هذا الرجل العظيم، وفرح قلبي من أوّل لحظة، ودبّ في قلبي شعور ملحّ أنّ الفرج سيكون على يد هذا الرجل الفاضل.

كان الأستاذ سيد يعيش ومعه ثلاثة إخوة، هم الأستاذ محمد هواش، والأخ عزت غريب؛ ذلك الأخ الذي أرسل يدعوني إليهم، وكانت تربطني به صلة وثيقة منذ أن تآخينا في الله في سجن أسيوط، وكان من أكثر الناس ورعا وتعبّدا وخوفا من الله، وكان يفضل البعد عن مشاكل الناس، أو الخوض في أحوالهم، وكان لا يدخل نفسه في صدامات مع أحد، خوفا من أن يرتكب خطأ أو يلابس ذنبا، فكان على عكسي تماما، فقد كنت دائم التّعرّض للمشاكل، وكنت لا أسكت على الأخطاء والمخالفات، وكنت على استعداد دائم للعراك من أجل ما أعتقد أنّه حق، وكان ينهاني عن ذلك كثيرا، ويخوّفني عاقبة هذا السلوك، فكنت أعارضه بأنّنا لا يجوز أن نكون سلبيّين، بل يجب أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونأطر الناس على الحقّ أطرا. ولكنّه مرض مرضا صدريا، وانتقل إلى مصحّة طرة ليجاور الأستاذ سيد ويتلقّى منه هذا الحقّ، وأحبّ لي أن أشاركه هذه النّعمة، فحرص على دعوتي إليهم، وكان نعم المعين في هذا الطريق، ولكنّه ترك الحياة سريعا متأثّرا بمرضه رحمه الله رحمة واسعة. وكان ثالثهما أخ يقوم بالخدمات الداخلية والخارجية، لأنّه كان أكثرهم عافية وأقدرهم على الحركة، لكنّه لم يستفد كثيرا من حياته مع الأستاذ سيد. وكان جميع من في المصحة يكنّون للأستاذ الحب العميق، ويأتمرون بأمره،

ويتبرّكون بحياتهم معه، رغم أنّ أكثرهم كان من المجرمين العتاة، ولكنّهم كانوا بين يدي الأستاذ كالجمال المذلّلة والقطط الوديعة.

وكان الإخوة الأربعة يعيشون في ركن من الصّالة الواسعة، ويحجزهم عن بقيّة المساجين حواجز يطلق عليها "برافان".

في هذا المكان عشت فترة من الزمان لا أدري كيف مرّت، ولكنّها كانت مفعمة بالخير والحبّ، والمشاعر الراقية، والعلم النافع، وكانت بداية رائعة لرحلة مباركة ممتدّة إلى هذه اللّحظة التي أسطر فيها هذه الكلمات القصار.

كنت أنزل في مبنى آخر من المستشفى لأمراض العظام والباطنة والمسالك. وكنّا مجموعة من الإخوة، وكان الباب يفتح مع الصّباح في السّاعة السّابعة والنصف تقريبا، ويغلق في السّادسة مساء، وكنّا نتحايل بطرق يجيدها من عاش في السّجون لكي نذهب إلى مصحّة الأستاذ التي لم يكن مسموحا لنا بأن نذهب إليها. ولكنّ الله كان ييسّر لنا اللّقاء دائما على مدى ثلاثة شهور انتهت مع أوائل شهر أغسطس عام ١٩٦٢ م.

ولقد أحاطني الأستاذ سيد بحفاوة بالغة، وطلب مني أن أعتبر نفسي ضيفا دائما عليهم في المصحة، لذلك كنت أذهب مع الصّباح الباكر لأتناول معه الإفطار، ثمّ أظلّ معه حتى وقت الغذاء، ثمّ إلى وقت إغلاق أبواب المستشفى في السّاعة السّادسة مساء.

كنت متلهّفا على الجلوس إليه والاستماع له، كما كنت متلهفا على البوح له بكلّ ما دار ويدور في نفسي، ذلك أنّني أيقنت بعد وقت قصير من لقائي به، أنّني أخيرا عثرت على ضالّتي، وعلى ذلك الرّجل الذي سيفتح لي – بفضل الله وتوفيقه – مغاليق المعضلات التي عشت في عناء معها وبها.

كان مظهره وديعا، وعيناه تقطران حباّ لكلّ من يلقاه، وفي صوته بحّة حلوة ممزوجة بحياء جليل، وكان يتعامل في بساطة عفويّة، تفوح منها مشاعر الرّحمة والتواضع والإشفاق، وكانت يداه الأنيقتان تلمسان الإنسان وتربتان على قلبه في حنو عميق وحبّ صادق، وإذا تكلّم في أمور الإسلام والحقّ تكلّم كلاما مرتّبا بليغا، تتخلّله موسيقى غير متكلّفة، تنبع من كلماته الرقيقة وألفاظه الجزلة، مع ما فيها من الحق المجلجل، والدّليل السّاطع، والصّدق في المعاني، والوضوح والتّألّق.

لذلك كنّا نعيش معه في رحلة ساحرة لا يستطيع القلم وصفها ولا شرح مذاقها، وكنت أقول في نفسي؛ إذا كان هذا شعورنا بهذا الرّجل العظيم وهو لا يعدو أن يكون رجلا عبقريا، ليس رسولا ولا نبيا، فكيف كان حال الصحابة ﷺ إذن مع رسول الله ﷺ؟!!

وبدأت أولى جلساتي مع الأستاذ بعد تناول طعام الغداء معه في المصحّة، وبعد أن احتسينا الشّاي، خرجت معه إلى ركن في تلك الحديقة الصّغيرة التي كانت تحيط بالمصحّة، وجلسنا على أريكة خشبيّة صغيرة جنبا إلى جنب، وبعد صمت قصير، سمعته يقول لي: هيه يا مصطفى كيف حالك؟ وأجبته بسرعة: إنّني بخير والحمد لله، وإنّني سعيد بدرجة لا أستطيع وصفها للقائي به. رغم أنّني كنت أحاول أن أكون حذرا في إبداء مشاعري، ذلك لأنّني كنت أريد أن أتريّث حتّى أكتشف الرّجل. فإحساسي بالجماعة وقياداتها كان مهتزاّ، وكنت – كما قلت – قد فقدت كثيرا من الطّمأنينة والثقة بهذه القيادات. لذلك كنت أريد ألّا أتعجّل في الثّقة بالأستاذ سيد، وكنت أحاول أن أعيق مشاعري التي تتسارع نحوه حتّى لا أندفع بلا روية. ولكن عبثا كنت أحاول، فلقد وجدتني أسابق مشاعري وكياني لأقول له تلكم الكلمات التي رددت بها عليه. نعم، كان من الصّعب عليّ، بل من المستحيل أن أقيّد مشاعري نحو هذا الرّجل الذي امتلأت نفسي منذ أن التقيت به بالحبّ والثّقة والطّمأنينة. ولقد حاولت بعد ذلك اللّقاء الأوّل أن أراجع نفسي مرّة أخرى محاولا كفّها عن الاندفاع في الإعجاب والحبّ والثّقة بهذا الرّجل، ولكن هيهات. فلقد اطمأنّت نفسي ورضي قلبي، وأيقنت أنّ الله قد شاء لي أن أرتبط بهذا الرّجل العظيم.

وأنا على يقين أنّه ما من أحد التقى بالأستاذ الكريم إلّا وحدث له ما حدث لي، فكلّ من التقى به من الإخوة كبارا وصغارا، حتّى هؤلاء الذين خالفونا وعادونا حين ذهبوا إليه، إذا هم ينقلبون أولياء. بل كان ضبّاط السّجن ومديروه أيضا يقفون بين يدي الأستاذ كالحملان الوديعة.

فلم أكن أنا وحدي الّذي استسلم عن يقين ووعي لهذا الرّجل الكريم، ذلك أنّه كان يستحقّ كلّ ما أعطيناه له وأكثر. وكان كما أيقنّا من خلال حياتنا معه، أعظم بكثير ممّا كنّا نظنّ في أوّل الأمر، وكلّما عشنا معه ازداد يقيننا وازداد اقتناعنا بأنّه فريد عن كلّ تلك القيادات والزّعامات التي عشنا معها. لقد كان رجلا يعيش بالحق، ويجاهد بالحق، اصطفاه الله ليكون مجدّدا لهذا القرن، والله يمنّ على من يشاء من عباده ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون.

أعود مرّة أخرى لأحكي ماذا كانت البداية معه. وكيف كانت جلستنا الأولى، وفي أيّ الموضوعات تكلّمنا.. قال لي: يا مصطفى إنّ الوقت قصير ونحن لا ندري كم ستعيش بيننا، لذلك لا بدّ أن لا نضيّع وقتنا لأقول لك كلّ ما عندي. وأحسست من هذه الكلمات كأنّ الرّجل بدوره قد وثق بي ورآني أهلا لأن يحدّثني بكلّ ما عنده، ولعلّ شهادة الأستاذ محمّد هوّاش والأستاذ عزت غريب قد أسهمتا في بناء الجسور التي وجدتها مشيّدة وقائمة بيني وبين الرجل. المهم أنّني وافقته على ذلك وأبنت له عن لهفتي إلى أن أسمع منه كلّ شيء في أسرع وقت لأنّي أخاف الرّحيل المفاجئ.

وبدأ يتكلّم، مركّزا أوّل الأمر على منهج التّلقّي، أي كيف نتلقّى هذا الدّين وبأي طريقة. ولأوّل مرّة أستمع إلى مثل هذا الحديث العميق عن أنّنا تلقّينا الإسلام بطريق غير صحيح، ولا بدّ لنا من العودة مرّة أخرى إلى

تلمّس الحقّ بنفس المنهج الّذي تلقّى به صحابة رسول الله ﷺ هذا الحقّ أوّل مرّة. وقال: إنّنا في حاجة إلى مراجعة كلّ المصطلحات الإسلاميّة لنتعرّف على معانيها الحقيقيّة التي عناها القرآن أوّل مرّة، ذلك لأنّنا سنكتشف أنّ فهمنا للقرآن وللسنّة فهم محرّف، إن لم يكن مقلوبا، لأسباب كثيرة، أهمّها؛ ذلك الكيد المنظّم من أعداء هذا الدّين لإقصائنا بعيدا عنه، وتفريغ المصطلحات الرّبّانيّة من محتواها الحقيقي، لنظلّ نردّدها ونحن أبعد ما نكون عن حقائقها التي لا يقوم هذا الدّين إلّا بها. كما أنّ جهلنا باللّغة العربيّة، لغة القرآن، أدّى إلى عدم فهم القرآن الكريم. يضاف إلى هذ؛ ذلك الرّكام الهائل من الانحرافات الفكريّة والسّلوكيّة التي أدّت إلى فقدان الجوهر الحقيقي للإسلام في حياة النّاس، وسهّلت عليهم قبول تلك التّفسيرات الخاطئة للمصطلحات الإسلاميّة.

كان هذا هو الموضوع الرّئيسيّ للّقاء الأوّل. حيث ركّز على ضرورة العودة إلى الفهم الصّحيح للإسلام، ولا يتمّ ذلك إلّا بالتّلقّي من المعين الصّافي وهو القرآن الكريم، وبنفس الطّريقة والمنهج الذي تلقّاه الصّحابة أوّل مرّة.

كما تحدّث عن الهزيمة الرّوحيّة في مواجهة التّيّارات الحديثة ومصادرها، والتّركيز على الاعتزاز بالمصدر الرّبّاني، ونبذ كلّ تلك المصادر البشريّة التي تبعدنا عن الفهم والرّوح والجوهر الذي عاش به الجيل الأوّل.

وأحالني إلى كتاب "المصطلحات الأربعة" للأستاذ المودودي بعد أن شرح لي كثيرا ممّا جاء به.

ثمّ بدأ بعد ذلك في الحديث الدّقيق والعميق عن ذلك المصطلح الأعظم، وعن الحقيقة الكبرى في التّصوّر الإسلامي، وهي حقيقة "لا إله إلّا الله"، وكيف فهمها المسلمون الأوائل، وكيف تلقّاها الرّجل العربيّ حينذاك، وما ترتّب على إدراك هذه الحقيقة من انقلاب كامل في حياة أولئك الذين تلقّوا الإسلام أوّل مرّة.

ولقد أفاض الأستاذ في شرح هذه القضيّة، وأنّها الرّكيزة الأساسيّة في دين الله الذي جاء به الأنبياء جميعا.

وانتهت الجلسة الأولى، ورجعت إلى المكان الّذي أبيت فيه وقد تغيّرت معالم الحياة كلّها أمامي.

وبدأت من هذه الجلسة وحدها أرى الوجود كلّه بصورة أخرى تماما، واستغرقت في تفكير طويل طيلة هذه اللّيلة، وكنت أحس بقلبي يدقّ دقّات قويّة، ونفسي كلّها تهتزّ كلّما استعدت كلمات الأستاذ، وكلّما رنّ صوته الرخيم في أذناي.

وهكذا عشت الأيّام الأربعة التّالية، أجلس كلّ يوم، تارة منفردا بالأستاذ، وتارة مع الإخوة الآخرين، يحدّثنا في تلك القضايا الكثيرة التي نراها منبثّة في كتبه، يعبّر عنها بتلك الكلمات الواضحة الحاسمة.

ولم يكن شيء ممّا يقوله الأستاذ الكريم مستغربا عندي، فقد كان وكأنّه يعبّر عن أشياء في نفسي وعقلي وروحي. غير أنّني لم أكن أدري كيف أقولها، أو كيف أصوغها، وكان كلّ ما يقوله منطقياً مترابطا، يستند إلى

دليل من كتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ، أو من خلال أحداث السّيرة النّبويّة التي كانت تصويرا وتجسيدا عمليّا لهذا الدّين الجديد.

كان كلّ شيء يتسرّب إلى نفسي ليستقرّ استقرارا عميقا راسخا، وكنت في حالة من الفرح والنّشوة بهذا العطاء الذي أخرجني الله به من ظلمات الحيرة والشّكّ والتّناقض والشّرود. وبدا لي أنّ لكلّ سؤال جوابه الواضح الصّحيح المنطقيّ، ولكلّ مشكلة حلها السّهل الصّريح. وتأكّد لي أنّ ذلك الانقلاب الذي حدث في حياة رجال الجيل الأوّل سببه ذلك الإدراك النّقيّ الصافي لحقيقة "لا إله إلّا الله"، وبدأت من خلال ما أحسّه داخلي من تغيّرات أدرك أنّ ذلك الانقلاب ذاته قد حدث في داخلي، لقد أيقنت حينذاك أنّ هناك بابا واحدا لابدّ أن يدخل منه الناس إلى الإسلام، ذلك هو باب "لا إله إلّا الله" بمعناها الحقيقي وعمقها واتّساعها اللذين يؤدّيان إلى ذلك الانقلاب.

ولذلك كان يوم ١٠ مايو عام ١٩٦٢ م أي بعد خمسة أيّام من لقائي بسيّد قطب، كان يوما حاسما، اعتبرته بداية حياة جديدة وحقيقيّة بالإسلام. ولقد بلغ بي الإحساس بهذه الجدّة وبعمق هذا التّغيير أنّي دخلت أغتسل غسل الإسلام. وأحسست أنّني في ذلك اليوم فقط عرفت الإسلام الحقيقيّ، وآمنت بالله وحده، وأنّني بهذا أكون قد دخلت الإسلام من بابه الوحيد الصّحيح.

ولم يكن هذا السّلوك مبالغا فيه، ذلك أنّ حجم الانقلاب في نفسي وكياني كلّه كان من الضّخامة والعمق بحيث يدفعانني دفعا إلى الإحساس بميلاد جديد على ذلك النّحو الرّائع المتميّز، ومهما حاولت أن أعبّر عن مشاعري وأحاسيسي بهذا الانقلاب فلن أستطيع أن أصف مذاقه ووقعه في نفسي. ويكفي أن يكون شعوري الصّادق هو أنّني الآن، والآن فقط، عرفت الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ والنّبيّون من قبل، وأنّني لأوّل مرّة أتذوّق مذاق العبوديّة لله الواحد صاحب السّلطان النّافذ على كلّ الوجود، له الملك وله الحكم وله الدّينونة على العباد.

ولن أستطيع في هذه الصّفحات المحدودة أن أتحدّث بتفصيل عن كلّ شيء سمعته من أستاذنا العظيم، لأنّه — رحمه الله — قد ضمّن كتبه كلّ ما أراد أن يقوله بوضوح وجلاء لمن يريد بأسلوب بليغ بسيط، وبتحديد دقيق، ولن نرتفع إلى مستوى هذا الأداء مهما حاولنا.

ولكنّني سأكتفي بإيراد كلّ الحقائق التي تلقّيتها منه كما سمعتها تماما، مع ما أحاط بها من لمسات نفسيّة، ومواقف معبّرة، مما يلقي ضوء على حياتنا مع أستاذنا الكريم، ويرسم صورة لتلك المعايشة التي عشناها في كنفه والتي كانت كلّها مصبوغة بروح هذا الدّين العظيم، ومن ثمّ فقد تلقّينا منه كيف نحيا بهذا الإسلام في الواقع، بعد أن تلقّينا منه الحقائق النّظريّة التي لم تنفصل أبدا عن صخب الحياة وحركتها ومشاكلها.

ولا أخفي أنّ المحاولة صعبة، وأنّني أشعر بمزيج من الرّهبة والعجز حين أفكّر في استعراض هذه الفترة العجيبة الرّائعة والخطيرة، ففوق أنّها أمانة تحتاج دقّة شديدة حتّى لا أقول على الرّجل شيئا لم يقله، أو أنسب إليه شيئا لم يرده، فإنّ نقل الصّورة كاملة يكاد يكون مستحيلا، لأنّنا لن نستطيع أن نستردّ لحظات الزّمن، ولا أن نعيدها إلى الحياة مرّة أخرى، فالحياة كموج البحر لا نستطيع وقفها ولا استردادها، فضلا عن أنّ كلّ لحظة كانت تمرّ علينا مع سيد قطب كانت تحوي أكداسا من المشاعر والأفكار والتصرفات، بحيث يستحيل على البشر أن يحصوها، فضلا عن أن ينقلوا طعومها ومذاقاتها.

لذلك سوف أوردها بقدر ما يهبني الله من توفيق، وبقدر ما تطيق ذاكرتي الفكرية والشعورية من دقّة وإحصاء، وبعد ذلك سوف يظلّ هناك قسط هائل ممّا حدث متأبّيا على التّعبير والتّوصيف، وصدق القائل "من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف".

فإلى هذه المحاولة الصّعبة، وبالله التّوفيق وهو المستعان وعليه التكلان.

ابتداء؛ أحبّ أن أنبّه إلى نقطة هامّة ومعلم واضح لا يجوز أن ننساه في غمرة الحبّ والإعجاب والوفاء لأستاذنا العظيم. ينبغي ألّا ننسى أنّه بشر ليس معصوما، ولكنّنا نؤمن بأنّ الله يمنّ على بعض عباده، فيفيض عليهم من الرّحمة والعلم والتّزكية بما يرى الله سبحانه أنّهم له أهل، وأنّ هؤلاء يجعلهم الله منارات للبشريّة، يجدّد بهم دينه بعد انقضاء عهد النّبوّات، فهم ورثة الأنبياء كما جاء في الحديث "العلماء ورثة الأنبياء"[1]، ومن ثمّ فهؤلاء البشر، ومنهم أستاذنا العظيم، نحسبهم من عباد الله الذين اصطفاهم ليقوموا بهذه المهمّة العظمى، مهمّة تجديد هذا الدّين كلّما اندرست على النّاس معالمه، ولكنّ هذا لا يعني أنّهم معصومون، ولا يعني أن نتلقّى منهم دون مطالبتهم بالدّليل. ولا يعني هذا أنّهم دائما على صواب.

بهذه الصّورة نضمن ألّا نقع فيما يقع فيه النّاس من ذلك الاتّباع الأعمى، أو ما يقعون فيه من تقديس علمائهم ومشايخهم، حتّى يخرجوا بذلك عن حدود الإسلام. وقانا الله شرّ الشرك والمشركين، وجعلنا من عباده الموحّدين. اللّهمّ آمين.

نبدأ بأولى التصورات الإسلامية كما نقلها لنا الأستاذ من خلال علمه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يرى الأستاذ أن الإسلام يقرر بوضوح أن هناك وجودين؛ وجود الخالق ووجود المخلوقين.. وجود الله سبحانه ووجود العبيد.. وجودان متمايزان تماما. وجود الله عز وجل الذي ليس كمثله شيء في وجود ولا في صفات ولا في أفعال ولا في سلطان، فله المثل الأعلى في السماوات والأرض، له الخلق والأمر، وهو الذي في السماء إله وفي

[1] حديث "العلماء ورثة الأنبياء" أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء ﷺ، قال الحافظ العراقي: وهو حديث صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار ورجاله موثقون.

الأرض إله، يتصف بالجلال والكمال والعظمة والجمال، الموجود بذاته الأول بلا بداية، الآخر بلا نهاية، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، إلى آخر ما وصف الله به نفسه في كتابه وعلى ألسنة رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم..

ووجود آخر مخلوق؛ ذلك كل ما عدا الله سبحانه وتعالى، خاضع لقدرته وتصرفه، فهو المحيي المميت، والمعطي والمانع، والنافع والضار، وكل من في السماوات والأرض له قانتون، وهذا الوجود المخلوق يتصف بالحدوث، نشأ بعد عدم، ويفنى بعد وجود، وكل ذلك بأمر الله ومشيئته.

وكل ما في الكون يقف في مقام العبودية لله الحق سبحانه ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ (الإسراء: ٤٤).

والإنسان ذلك المخلوق الذي خلقه الله بيده وأحسن صورته، خلقه ككل المخلوقات لعبادته ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات: ٥٦). والحياة كلها عبادة، وكل نشاط للإنسان يمكن أن يكون عبادة لله حين يكون وفق أمره ومنهجه، صوابا خالصا، أي خالصا من الشرك صوابا على السنة، وأن الله تعالى يبتلي عباده في الدنيا ليعلم من يؤمن به ومن يكفر ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ (الملك: ٢)، ومن ثم فهناك داران؛ دار الدنيا للابتلاء والاختبار، والدار الآخرة للحساب والجزاء، وخلق الجنة لمن أطاعه والنار لمن عصاه.

ومن ثم.. فأمام الإنسان في هذه الأرض طريقان؛ طريق الهدى، وطريق الضلال.. وطريق الهدى واحد لا يتعدد، وطرق الضلال كثيرة متناثرة ﴿**وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾(الأنعام: ١٥٣).

وصراط الله المستقيم هو صراط الأنبياء الذين هم رسل الله إلى العباد، ليبينوا لهم، ويسوقوهم إلى صراط الله المستقيم. وقد جاءوا جميعا ليدعوا الناس إلى عبادة الله وحده بلا شريك، وليجتنبوا الطاغوت، وهو كل ما عبد من دون الله وهو راض، وكل من أتبع أو أطيع بغير إذن من الله ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ**﴾ (النحل: ٣٦).

وشهادة أن لا إله إلا الله هي التي تعبر عن هذه الحقيقة الأولى التي جاء الأنبياء جميعا بها، ومن ثم فشهادة أن لا إله إلا الله في أبسط معانيها وأجلاها. وكما فهمها العربي الذي سمع محمدا ﷺ يجهر بها تعني أن لا معبود بحق إلا الله، ولا سلطان ولا حكم إلا لله سبحانه، ومن ثم.. فالذي يشهد هذه الشهادة عليه أن ينخلع عن كل الأنداد والشركاء، ويعبد الله وحده ويسلم له، وعلامة ذلك في حياة البشر أن يتلقوا حياتهم كلها من الله سيدهم ومولاهم وحاكمهم، وأن يتوجهوا بكل شيء إليه أيضا، ومن أجل ذلك فقد بعث الله الرسل بالرسالات

التي تعلم الناس وتدعوهم إلى هذه الحقيقة، وترسم لهم منهج حياتهم، وتزودهم بالشرائع التي تنظم اعتقادهم وشعائرهم وأحكامهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم وأخلاقهم وتعاملاتهم، كما قال تعالى ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ (الشورى: ١٣).

ومن هنا كانت شهادة أن لا إله إلا الله تعني أنه لا خالق إلا الله، ولا مالك ولا حاكم إلا الله سبحانه، فالحاكمية العليا لله وحده.. الحاكمية على الضمائر والمشاعر والشعائر والشرائع، وعلى كل شيء. وأن الإسلام في حقيقته البسيطة هو الاعتراف المذعن لسلطان الله، متمثلا ذلك في الخضوع الكامل الراضي لشريعة الله وحكمه ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً** ﴾ (النساء: ٦٥).

هذه خلاصة دعوة الأنبياء متمثلة في شهادة أن "لا إله إلا الله" بمعناها الحقيقي، وبالإذعان لها، والحياة بها، أي أن تصبح شهادة أن لا إله إلا الله منهج حياة العباد، لا منهج لهم سواها، وأن كل ما عدا ذلك من مناهج هي مناهج جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان.. والجاهلية هي صيغة الحياة المناهضة لدين الله؛ حين لا يهتدي الناس بهدى الله، وحين ينظمون حياتهم مستقلين عن حكم الله.. وهي بذلك تمثل منهج حياة كامل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالله إيمانا، ولا يعطون لله حق العبودية بالخضوع المذعن لحكمه وشرعه..

فالناس إما في حالة إسلام، أو في حالة جاهلية، وليس لهم حالة ثالثة ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾(التغابن: ٢).

ومن هنا يقرر الأستاذ سيد في حسم ووضوح؛ أن **قاعدة الحياة هي شهادة أن لا إله إلا الله**، وكل أمر أو شأن من شؤون الحياة يستمد شرعيته من تطابقه مع هذه الشهادة وقيامه على أساسها وانبثاقه منها، وإلا فلا شرعية له ولا قبول..

والأمة المسلمة قامت يوم قامت على أساس هذه القاعدة، وانبثقت حياتها كلها وفق هذه الشهادة، ومن ثم فالأستاذ سيد يرى أن هذه الأمة المسلمة قد غابت عن الوجود وعن الشهود، ولم يعد لها وجود، وانتهت شكلا وموضوعا بسقوط الخلافة العثمانية..

فالعالم اليوم تعمّه الجاهلية منذ أن رفضت أممه جميعها دين الله، يستوي في ذلك؛ تلك الأمم التي لم تدن بالإسلام أبدا ولم تخضع له.. أو تلك التي عاشت دهرا من حياتها بالإسلام ثم ارتدت عنه مولية وجهها بعيدا عن عقيدته وشرائعه وأحكامه، مستبدلة مناهج البشر وشرائعهم بمنهجه وشريعته.

وهو لا يجمجم في هذه الحقيقة، فهو يرى أن العالم الذي كان يوما ما إسلاميا، قد انتقض إسلامه يوم فرّط في دينه وشريعته، وسلك مسلك الكافرين، وتحاكم إلى شرائعهم، وانتهج نهجهم، أيا كانت الأسباب والذرائع..

ومن ثم يرتب على ذلك نتائج خطيرة في نظرته إلى كل شيء حوله، من ذلك ما يلي:

أولا: يرى أن الأرض كلها تحولت إلى حالة الجاهلية، وأن كل الديار تحولت ديار كفر، وأن الشعوب تعيش في حالة جاهلية يرفضها هذا الدين حينما أشركت مع الله آلهة أخرى بتحاكمها إلى شريعة الطاغوت نابذة شرع الله.

ثانيا: أن الحكام جميعا كافرون لأنهم لا يحكمون بشريعة الله، تطبيقا لقول الله عز وجل ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.. الظالمون.. الفاسقون**﴾.

ثالثا: أن الشعوب في جملتها شعوب مشركة، أما أعيان الناس فيتحدد الحكم عليهم حسب موقفهم من الإسلام، وعلمهم بالشهادتين، وولائهم لله ورسوله، وإنكارهم الكفر والشرك وكفرهم بالطاغوت.

وهذه القضية قضية الناس التي يقيمون الدنيا ويقعدونها من أجلها، ويخبطون فيها خبط عشواء، يراها الأستاذ بديهة من البديهيات، وأصلا في إدراك الواقع الموجود، ونقطة انطلاق أساسية لطلائع الحركة الإسلامية. حيث يقرر في وضوح أن الناس لا يعلمون معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وذلك معلوم من الواقع بالضرورة، ومن خلال ملابسة الناس والاقتراب منهم، وهو نتاج طبيعي للكيد المنظم والمستمر لتحريف كل المصطلحات الإسلامية، وإدراك الشيء فرع عن معرفته، والناس حين لا يدركون معنى لا إله إلا الله ولا معنى التوحيد فإن من الخبط أن يوصفوا بالإسلام من أجل نطقهم بكلمات لا يدركون معناها ولا حقيقتها، ومن ثم لا يعتقدونها، والأولى أن ندعوهم إليها ونعرفهم بها كما حدث أول مرة، فإن علموها ورضوا بها كانوا مسلمين، و إلا فهم في جاهليتهم وكفرهم يعمهون. وهو لا يعتبر الجهل عذرا لأنه وارد على أصل الاعتقاد. أما موضوع الجزاء في الآخرة فهو مفوض إلى رب العباد، إن شاء عاقبهم، وإن شاء عفا عنهم من خلال معرفته سبحانه ببواطنهم، أما نحن البشر فنحكم بالظاهر المعلن، وهذه القضية مبسوطة في كتبه.

ومن ثم فإنه لا يتلجلج في الحكم بالكفر والشرك على العموم، أما بالنسبة للأعيان فهو يطالب بالتوقف في مستوري الحال الذين لا يعرف من ظاهر أحوالهم ما يرجح جانبا على جانب.

وهو يطالب طلائع الحركة الإسلامية بألا يأبهوا بصيحات الجاهلية، ورميهم لهذه الطلائع بتهمة تكفير المسلمين، فهذا أمر طبيعي يحدث مع كل داعية إلى التوحيد، بغية تنفير الناس منه وصدهم عن الحق. وقد حدث هذا مع الأنبياء والمرسلين، فهي سنة من سنن الصراع بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية. ويحذر الدعاة

إلى الله أنهم لا بد أن يقتحموا هذه العقبة ويتجاوزوها بلا خوف ولا تردد، معتمدين على الله متوكلين عليه حتى يتميز الحق من الباطل، ويتميز سبيل المؤمنين وسبيل الكافرين المجرمين ﴿ **وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾(الأنعام-٥٥).

وهذه القضية ليست قضية فرعية ولا ثانوية، وليس من الممكن تجاهلها وتجاوزها كما يدعي البعض، فهي إفراز طبيعي وتطبيق ضروري لحقيقة لا إله إلا الله. وهي مرتبطة بأصل الاعتقاد، والولاء والبراء، وهي نقطة انطلاقة ضرورية للدعاة إلى الله حينما يقومون في ديار الكفر.

رابعا: وهو يرتب على ذلك أيضا **أن الإيمان الحق بشهادة لا إله إلا الله يقتضي قيام الجماعة المسلمة منذ أول ثلاثة يشهدون شهادة الحق**، فالإسلام لا يقوم إلا بالجماعة التي تقوم لتنكر على الجاهلية كفرها وتمردها على الله حين تقوى وتتهيأ لذلك حسب ما علمنا الإسلام.

وهذه الجماعة التي تقوم مجانبة للجاهلية ولنظامها ولقيادتها ولقيمها وأخلاقها تكون لها بالضرورة كيانها المستقل عن الجاهلية، وقيادتها المستقلة، وترابطها فيما بينها من خلال الولاء بين أفرادها، وعليها أن تحدد مهمتها؛ وهي العمل على دعوة الناس إلى توحيد الله وتحكيم شريعته، وعلى اقتلاع الجاهلية من جذورها ليكون الدين كله لله..

خامسا: وأن أول ما تقوم به هذه الجماعة هو تحقيق **المفاصلة الشعورية** بينها وبين الجاهلية، ولا تستعجل المفاصلة العملية لأن هذا يقتضي أن تصل إلى درجة معينة من حيث التربية على الإيمان، ورسوخ حقيقة التوحيد، والتحقق من القدرة على المواجهة، وعدم تعرضهم للفناء حتى يكملوا الطريق نحو قيام دار الإسلام.

سادسا: وكل ذلك يستدعي من الجماعة المسلمة فقها خاصا تواجه به مراحل الحركة المختلفة، قائم على المقاصد الشرعية والقواعد الكلية، متوجهة بطبيعة الحال إلى إقامة شريعة الله كاملة متكاملة حين يتحقق لها التمكين وامتلاك السلطة التي تمكنها من تطبيق حكم الله في النهاية.

سابعا: ويرى أن الجماعة المسلمة الوليدة عليها أن تقتدي اقتداء كاملا وأمينا بخطوات الجماعة المسلمة الأولى التي أقامها رسول الله ﷺ، آخذة في حسابها تلك الاختلافات الواضحة بين طبيعة النشأة الأولى وظروفها، وطبيعة النشأة الأخرى وظروفها، مجتهدة من خلال فقهائها وعلمائها في تقرير سلوكها المتناسب مع مرحلة الحركة التي تمر بها. وهذا كما قلنا يقتضي فقها حركيا ينبثق من واقع الظروف والأحوال والعقبات، وأشكال الصراع التي تواجهها الحركة، والجماعة مستأنسة بذلك بكل ما ورد في تراثنا الفقهي لسلفنا الصالح.

ثامنا: ويصل الأستاذ سيد إلى قمة الوعي والإدراك بهذا الدين حين يتحدث عن **المعركة القائمة بين الحق والباطل**، مستلهما ذلك من تعليم الله للمسلمين كما ورد في كتاب الله عز وجل، وكما تبين بجلاء من خلال إدراك الرسول ﷺ وقيادته للجماعة المسلمة، وسط التيارات المعادية والمتنوعة التي واجهت الجماعة المسلمة أول مرة، ثم يربط بين المعركة والعقيدة في وشيجة واحدة حيث أن المعركة والصراع هو في جوهره صراع بين عقيدة وعقيدة، وبين منهج ومنهج، ثم يكرّ بعد ذلك ليستعرض تفاصيل هذا الصراع منذ جاء الإسلام وحتى اليوم، ويبين لنا في بيان مذهل حقيقة الكيد والحرب بين معسكرات الكفر من يهود ونصارى ووثنية ومدعي إسلام، ويكشف الستار ويعرّي الحقائق ويفضح الأوضاع والأشخاص ليبين لنا حجم العداء على حقيقته، ولكي يزودنا بشعاع كاشف ليرينا مدى الغفلة والجهل الذي تعيش فيه البشرية عامة، والعالم الذي كان إسلاميا خاصة..

بل يبين لنا بوضوح أن القائمين على الحركة الإسلامية اليوم يتميزون بجهل فاضح بخطط الأعداء، وجهل فاضح بأشخاصهم ورموزهم.

ولا شك أن هذا الموضوع – موضوع **تجلية المعركة** – من أهم الموضوعات التي تناولها الأستاذ الكريم، وكانت جديدة علينا جدّة كاملة، وكنا بين يديه نسمع ما يقول وأفواهنا فاغرة من الذهول والإعجاب والمفاجأة أيضا، ذلك لأنه أسقط أصناما كثيرة، وحطم أوثانا عديدة، وأبان الزيف والمكر والخديعة، وظهر لنا كم كنا غافلين ومخدوعين وجاهلين.

ولقد عشنا في جماعة الإخوان لا نسمع شيئا من هذا الكلام، ولم نتزود أبدا بهذا الضوء الذي يكشف لنا أعداءنا وخططهم وكيدهم ومكرهم. والسبب في ذلك يرجع إلى عدم الوضوح العقيدي لدى جماعة الإخوان، الأمر الذي جعلهم لا يدركون الواقع الذي يتحركون من خلاله، ولا يعرفون الكيد الذي يحيط بهم، ويحللون الأحداث بطريقة ساذجة تضللهم وتبعدهم عن الرؤية الصحيحة.. ثم إن عدم الوضوح العقيدي أدى إلى اضطراب خطير في منهج الحركة والبلاغ والتربية، ومن ثم رغم الإخلاص والإقدام إلا أنهم كانوا يتخبطون ويتعرقلون في كل خطوة بسبب هذا الجهل العميق بالتصور والمنهج، ومن ثم الجهل بالأوضاع والعداوات من حولهم.

ولقد كان هذا واضحا في نظرتهم إلى الحكام وإلى الحكومات، وإلى الأنظمة والدساتير، وإلى الانتخابات والمؤسسات، وإلى الشعوب والأفراد.

لذلك كان حديث الأستاذ سيد عن المعركة من خلال العقيدة والمنهج قمة من قمم الوعي بهذا الدين.

ولقد أحالنا للتزود ببعض الحقائق والمعلومات إلى كتابات الدكتور محمد محمد حسين الذي كان قد سبق عصره في إدراك حقيقة المخطط العالمي ضد الإسلام، وكشف عن أسرار كثيرة حدثت في الفترة التي سبقت

سقوط الخلافة وبعدها، وعرّى كثيرا من الأسماء اللامعة والزعامات الزائفة، وكشف الستار عن تلك الخيانات التي ارتكبها الحكام العملاء والمفكرون المأجورون والزعماء الخونة، من تلبيس الأمور على الناس، وسوقهم إلى الضلال تحت رايات خادعة وأسماء زاهية من أمثال الوطنية والتقدم والحضارة، ومن خلال التسربل بأزياء إسلامية وصرخات إصلاحية، كل ذلك والناس غافلون لاهون، يساقون كالأنعام، فرحين بتلك الدعاوى الزائفة، وسعداء بما أتاحوه لهم من الشهوات والمسرات، ولم يبالوا أثناء ذلك بما داسوه من مقدسات الدين ومقومات الأخلاق، بل تنازلوا برضاء كامل عن كرامتهم وأخلاقهم وأعرافهم، وتنازل الرجال عن رجولتهم، والنساء عن أنوثتهن، وأصبح المجتمع وقد انحدر إلى مستنقع نتن ترعى فيه الحيوانات بل أضل.

وقضية كانت جديدة أيضا على مسامعنا، وتتبوأ مكانة كبيرة في فكر الأستاذ سيد قطب.. تلك **هي قضية المرحلية في الحركة بهذا الدين**.. وهذه القضية تنبثق انبثاقا طبيعيا من تلك النظرة الصحيحة لواقع المجتمع البشري ولغربة الدين الحق في هذا العصر الجاهلي الذي طغت فيه الجاهلية على بقاع الأرض جميعا.. تلك النظرة التي ترى أنه لا بد من بداية جديدة للدعوة إلى الله، وإقامة البناء الإسلامي من نقطة الصفر تماما، ذلك لأنه – كما حكينا عنه – يرى أن الأمة المسلمة قد اختفت وغابت عن الوجود والشهود.. ومن ثم فلا بد من أن نبدأ من جديد بنفس الخطوات التي سار عليها الرسول العظيم ﷺ..

فحركة هذا الدين حركة ذات مراحل، لكل مرحلة خصائصها ومقتضياتها، ولها فقهها الحركي المتوازي معها، كما أن لها أساليبها التي تحقق أهدافها المرحلية، ومن هنا كانت أهمية القضية التي مازال كثيرون من العاملين في الحقل الإسلامي لا يدركونها.

والموضوع في بساطة واضحة يبدو من خلال إدراكنا للهدف الذي تقوم من أجله الجماعة المسلمة، وهو دعوة الناس إلى الله ليعبدوه وحده بلا شريك، ويعطوه السلطان الكامل على حياتهم، ولذلك كانت الخطوة الأولى في حركة رسول الله ﷺ هي دعوة الأقربين إليه من أهله ومعارفه، دعوة فردية في كتمان، وتم بذلك تكوين نواة للجماعة المسلمة الذين امتلأت قلوب أفرادها وعقولهم بهذا الحق واستقينوه.

وكان لابد من البدء بهذه الصورة حتى يتسنى لأفراد الجماعة المسلمة فرص التربية، والإدراك الواسع والعميق للقضية التي آمنوا بها، دون ضجيج، ودون تشويش، حتى إذا نضجت هذه النواة، وأصبحت قادرة على مواجهة الجاهلية بهذا الحق والثبات عليه، أعلن الرسول ﷺ هذه الجماعة، لتتجسد الفكرة في واقع بشري، يحملها ويطبقها ويتعامل من خلالها مع الأحداث والأوضاع والأشخاص.

وكان لا بد أن ينفرد البلاغ بدعوة الناس إلى التوحيد الخالص لله، ومعرفة أن لا إله إلا الله، فلا تختلط الدعوة بأي مسلك يمنع الناس عن رؤية الحقيقة، أو يعطي للجاهلية فرصة التشويش على الحق.

لذلك كانت الدعوة في بدايتها دعوة للإيمان بالله وحده، وبيان هذه الحقيقة وما ينبني عليها من تغيرات في حياة الناس، دون الدخول في صراع مكشوف مع الجاهلية، أو مواجهة حادة مع الأوضاع، حتى يتسنى للناس أن يروا الأمر بصورته الصحيحة دون أن يتحول في أذهانهم إلى ما تصوره لهم الجاهلية من أنه صراع من أجل السلطة أو صدام من أجل الصدام.

لذلك كان الأمر بكف الأيدي والصبر على الأذى والعفو والصفح، حتى تظل الدعوة إلى حقيقة لا إله إلا الله غير مشوبة بأي أغراض أخرى، وحتى يرى الناس المدعوون في هذه الجماعة المسالمة الصابرة سلامة القصد ونصاعة الحق وخلوص النية، مع الإصرار على سلوك الطريق إلى الله دون ضعف أو هوان أو تردد.

وهذا الهدف لا يتحقق حين تتعجل الجماعة المسلمة الصدام مع الجاهلية وإعلان المواجهة الحادة باستعمال أسلحة القوة والمغالبة.. ذلك لأن الناس سيتلهون بصخب المعركة وقرقعة السلاح عن تبين الحقيقة الكبرى التي جاء ليقرها هذا الدين.

لذلك كان كفّ الأيدي، ليعطي الفرصة كاملة للناس لكي يدركوا معنى لا إله إلا الله من خلال البيان الهادئ، ومن خلال السلوك الذي تترجم به الجماعة المسلمة حقيقة التوحيد، ومن خلال الصبر والاستعداد الذي تواجه به الجماعة المسلمة ما تتعرض له من مضايقات الجاهلية.

والجماعة المسلمة أثناء تلك المعاناة صامدة، والابتلاء المرّ في الأنفس والأموال وفي الأرزاق والأبدان، يتحقق لها النمو المطلوب في الإيمان والأخلاق والطاقات، وترتقي الجماعة المسلمة في معارج اليقين بالحق، والترفع عن مستنقع الجاهلية، والارتواء برحيق الطمأنينة، لتطمئن أن ما هي عليه هو الحق، وأن ما عليه أعداؤها هو الباطل.

ولا شك أن هذا المسلك من الجماعة المسلمة يحرج الجاهلية، ويجعلها في موضع لا تحسد عليه حين تقابل الفكر المجرد بالتعذيب والنكال، وحين تعامل الخلق الكريم بهذا الانحطاط السلوكي، وحين تعلن بسلوكها ضعفها أمام الحق وأهله، وخشيتها من انكشاف زيفها وباطلها.

كل هذا يحرج الجاهلية، ويفقدها أصواتا كثيرة، ويبدأ شعور الناس بالتحول من العداء للجماعة المسلمة إلى تعاطف ثم إعجاب يقربهم من الاقتناع الواعي بالحق، ومن ثم إلى الانضمام إلى قافلته المؤمنة.

ولا شك أن ذلك سيحتاج وقتا وجهدا وصبرا وتضحيات، وهذا كله محسوب في منهج الله، فهو الذي يتربى من خلاله المؤمنون، ويتميز الخبيث من الطيب، وتتعرف الجماعة المسلمة على طاقاتها وعلى عناصرها، ومن ثم تستطيع أن تحدد خطواتها في ثبات ويقين.

هذا أحد وجوه قضية المرحلية، وهذا الذي يخص البناء الحركي ويحدد مراحله المختلفة، ابتداء من المرحلة السرية، إلى الإعلان عن الحق، ثم الإعلان عن التجمع الإسلامي، ثم الخوض في مرحلة الصراع في مواجهة الجاهلية دون الرد عليها، ثم الاستعداد لخوض معارك التحرير لنوع الإنسان من خلال الجهاد والقتال حين يتحقق للجماعة المسلمة القاعدة التي تنطلق منها لهذا الجهاد، كما حدث أول مرة حينما قيض الله للجماعة المسلمة الأولى أفرادا من أهل يثرب آمنوا بالحق ثم دعوا قومهم إليه، لتتكون بذلك دار الهجرة كي تكون القاعدة التي ينطلق منها الجهاد الإسلامي بمراحله المختلفة التي يدركها كل من تتبع صور الجهاد في المدينة بداية بالسرايا الطلائعية الأولى، مرورا بغزوة بدر الكبرى حتى غزوة تبوك..

تاسعا: كيف تتعامل الجماعة المسلمة الوليدة مع الجاهلية من حولها والتي تكن لها العداء، بل تعلنه في أشد الصور ضراوة وعنفا؟؟

كان هذا الموضوع أيضا من الموضوعات التي تضفي على فكر الأستاذ سيد التوازن، وتجعله يقف على قمة الوعي بمنهج الإسلام الذي يتصف بالجدية والواقعية، كما يتسم بالرفعة والرحمة، والذي لا يكلف الجماعة المسلمة فوق طاقتها، ويسهل لها التواجد رغم أساليب العداء المختلفة، مع الواقعية التي تتعامل مع الأوضاع والأحداث والأشخاص في حدود الطاقة، وفي حدود المرحلة التي تمر بها الجماعة، وبالخطاب الذي يستطيع الناس أن يفهموه، في الوقت الذي تضمن للجماعة المسلمة الوضوح العقيدي والتفرد السلوكي، فلا تنازل ولا مداهنة.

وأول ما يبدأ به المنهج الإسلامي لتحديد معالم التعامل مع الجاهلية هو **المفاصلة الشعورية**.. فمجرد الإيمان بالحق وشهادة أن لا إله إلا الله ينبت في قلب الفرد المسلم والجماعة المسلمة الإحساس العميق بتلك المفاصلة الشعورية بينه وبين ذلك المجتمع الجاهلي، وبينه وبين أفراد ذلك المجتمع ومؤسساته وأنظمته وأجهزته وقوانينه وأخلاقه وموازينه.. الإحساس بيقين أنه على دين وقومه على دين، فيحرر ولاءه؛ فلا يكون إلا لله ولرسوله وللحق وللمؤمنين، ويستشعر الغربة في ذلك المجتمع الجاهلي، والنقمة عليه، والإحساس القوي بالرغبة في تقويضه وهدمه، ليبني عليه المجتمع المسلم القائم على توحيد الألوهية لله رب العالمين، وتوحيد السلطان وتحقيق العبودية لرب العباد سبحانه وتعالى.

ومعنى أن ينفصل المسلم شعوريا عن مجتمعه الجاهلي أنه لا يستطيع أن ينسلخ واقعيا وعمليا عن ذلك المجتمع بسبب قلة عدد المسلمين وضعفهم، ولأنهم سيتعرضون للبلاء حين يحاولون الانسلاخ من هذا المجتمع، بل لا يمكنهم ذلك أصلا لفقدانهم كل إمكانيات الوجود المستقل الذي يملك السلطة والقوة، لذلك فهم مضطرون أن يكتفوا بالمفاصلة الشعورية، وأن يستمروا في البلاغ والدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وسوف يضطرهم هذا الوضع الصعب إلى أن يتأثر تطبيقهم لشريعة الإسلام بطبيعة الحال بالمرحلة التي يمرون بها.. وهذه النقطة بالذات من أشد النقاط خطورة، وأكثرها حساسية، بل إنها وضع شائك تجد الجماعة المسلمة نفسها فيه بسبب

التناقض الظاهر بين التكليف بكامل الشريعة التي تمت وكملت، وبين واقع الاستضعاف والمطاردة وفقدان أدوات وإمكانيات تطبيق هذه الشريعة بصورة كاملة، التي من أولها التحرر من سلطة الجاهلية والقدرة على اتخاذ القرار المستقل.

ثم إن تطبيق بعض واجبات الشريعة أو نواهيها يصطدم مباشرة مع واجب البلاغ ومدّ الجسور بين الجماعة المسلمة وبين الناس، بل يعرضها أحيانا لأشد أنواع الاضطهاد والمطاردة، بل قد يعرضها للفناء.

والخوف من الفناء وحده لا يكفي مسوغا لعدم تطبيق كل ما شرعه الله، لأن أقصى نتائجه هو الشهادة والموت في سبيل الله.

ولكن المسوغ الحقيقي يكمن في أمرين أساسيين:

أولهما: استحالة التطبيق في كثير من المجالات لسيطرة وهيمنة الجاهلية على كل الأوضاع السياسية والاقتصادية والتعليمية والوظيفية وغيرها من المجالات، بحيث يمنع المسلم منعا وبقوة من تطبيق شريعته وإظهارها والتعالن بها..

ثانيا: ما يتصل بأمر البلاغ، سواء في الجانب الإعلامي، أي البيان والدعوة إلى الحق، أو الجانب الأمني الذي يعرض أشخاص الدعاة إلى العزل بعيدا عن مجال البلاغ والدعوة..

وبما أن واجب البلاغ هو الواجب الأول على الجماعة المسلمة فإنه إذا تعارض مع أي واجبات دونه فلابد أن يقدم عليها، عملا بقاعدة العمل بالأوجب، وذلك يبدو على سبيل المثال في مسألة إطلاق اللحية أو العمل في الوظائف الحكومية أو الرضوخ لسياسته التعليمية أو مسألة استرداد الحقوق ودفع الاعتداء وهكذا... مما يضطر المسلم إلى مخالفة النصوص النهائية في الشريعة كي يتسنى له الاستمرار في عملية البلاغ والبيان، وعملية التربية والإعداد لمرحلة تقويض الجاهلية وهدمها.

لذلك تحتاج الجماعة المسلمة إلى ما أطلق عليه سيد قطب مصطلح الفقه الحركي في مقابل فقه الأوراق، ودعا الجماعة المسلمة أن يكون لها فقهها الخاص بها، المستمد من أصول الشريعة وقواعدها، والمستجيب لحاجات المراحل المختلفة التي تمر بها الجماعة، حتى تصل في النهاية إلى مرحلة التمكين الكامل الذي يمكنها من تطبيق شرع الله كاملا أيضا.

وتفصيل ذلك يطول، وليس هنا مكانه على كل حال، حيث نعرض هنا فقط أهم القضايا التي تلقيناها من الشهيد الكريم.

عاشرا: يبقى موضوع **تربية الجماعة المسلمة** لتصبح جديرة باصطفاء الله لها ونصرها على أعدائها وتمكينها في الأرض.

فالمقصود من عملية تربية الجماعة المسلمة هو صياغة أفراد هذه الجماعة صياغة إسلامية لتتحقق عبوديتها لله وحده، وذلك لا يتحقق إلا بذلك الجهد المتواصل، الذي يحتاج وقتا طويلا لترسيخ القيم الإيمانية في قلوب أفراد الجماعة المسلمة، وتقويم سلوكها حتى تكون صورة عملية واقعية لهذا الدين، ولتقيم شهادة الحق من القول والعمل.

ولن يتحقق هذا إلا بالمعايشة الطويلة، والاندماج العميق، والامتزاج بين أفراد تلك الجماعة، وتزويدها دائما بالتوجيهات الربانية، والأخذ بيد كل فرد إلى تلك القمة المطلوبة التي تحقق الكمال الإنساني المقرر له في الأرض، والتوجيه الدائم نحو الغاية المطلوبة، والتصحيح المستمر كلما طفا على السطح خطأ أو انحراف عن القيم الإيمانية المطلوبة، كما فعل رسول ﷺ حينما عيّر أحد الصحابة أخاه بلونه فقال له رسول الله ﷺ (إنك امرؤ فيك جاهلية).

وسوف يتعب القائمون على التربية، ويلاقون مصاعب جمة من التواءات النفوس وانحرافات القلوب، والمخالفات الكثيرة لكثير من التوجيهات والنصائح، ولكن لا بد مما ليس منه بد.. لا بد من الصبر على الأخطاء، ولا بد من احتواء هذه النفوس والقلوب، وعدم اليأس منها والقنوط، حتى تستوي تلك النفوس والقلوب على منهج الله القويم، وتحقق في واقعها شرط الاصطفاء التي تؤهلها لولاية الله.

وقد يأخذ ذلك الجهد عشرات السنين، ولكنه ليس جهدا ضائعا، فضلا عن أنه أمر ضروري لا محيص عنه، لكي تدخل به الجماعة المسلمة إلى المعركة وهي مزودة بأسباب الثبات والانتصار على الباطل، والجدارة بمعية الله لها في أوقاتها العصيبة.

وحين يتحقق المستوى المطلوب من التربية فإن الله سيدفع الجماعة المسلمة إلى مواطن الصراع والمواجهات مع الجاهلية، وسوف يساندها الله سبحانه بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ليحقق بهذه الجماعة المسلمة المصطفاة قدره الغالب في الأرض ﴿**ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾.

الحادي عشر: ومما تلقيناه نحن تلامذة سيد قطب من الرائد العظيم ذلك **التحديد الدقيق لمصطلح الجهاد**.. ذلك المصطلح الخطير الذي يعبر عن موضوع من أهم موضوعات الإسلام، حتى اعتبره رسول الله ﷺ ذروة سنام الإسلام.

ولقد تعرض هذا المصطلح لحرب شرسة ضارية لتحريفه عن حقيقته، كي يأمن أعداء الإسلام غائلة المسلمين إذا عادوا مرة أخرى إلى إدراك حقيقة الجهاد ومقتضياته، ولقد استجاب كثير من المثقفين والمفكرين لهذه الحرب الشرسة، وفاتتهم حقيقة المناورة والاستدراج الذي قادهم إليها المستشرقون خاصة وأعداء الإسلام عامة حين حاولوا أن ينفوا عن الإسلام طبيعته الهجومية، وحاولوا أن يحصروه في خنادق الدفاع فقط إذا اعتدى على المسلمين أو ديارهم، وحتى هذا المعنى الضيق حاول البعض أن يستبعده ليصبح الجهاد مطلوبا فقط حين يعتدى على الشعائر ويمنع المسلمون من أدائها.. أما إذا أبيحت لهم هذه الحقوق – أعني حقوق ممارسة الشعائر من صلاة وصيام وحج وغيره من الشعائر والنسك فقط – بطل الجهاد، ولم يعد له مكان!!

وكانت هذه مؤامرة خطرة تستهدف أعظم تكليف وأخطره بعد شهادة أن لا إله إلا الله..

ولقد تصدى سيد قطب بشجاعته المعهودة ورغبته الحادة في تحدي كل ما يؤمن ببطلانه، وبكل ما أوتي من دقة الرصد ودقة التعبير وصراحة المواجهة، تصدى للحديث عن الجهاد في الإسلام، ليصحح ذلك التحريف، ويبطل هذه التخرصات.

فسيد قطب انطلاقا من تصوره العقيدي للإسلام، وهو أن الألوهية لله وحده، ومن ثم يكون سلطانه على الكون كله بما فيه هذه الأرض وما عليها.. وأن الإسلام هو دعوة الله لخلقه أن يعبدوه وحده بلا شريك فلقد ترتب على هاتين القضيتين قضية ثالثة، وهي حق الله سبحانه الكامل في أن يكون الدين كله له، والحكم كله له سبحانه، فيجب على الأرض جميعا أن تخضع لحكم الله الملك القهار لتحقيق هدفين:

الأول: هو تحقيق ألوهية الله في الأرض وإقرارها في الواقع ﴿**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله**﴾.

الثاني: إزالة كل العوائق أمام الناس ليختاروا الوضع الذي يروقهم دون قهر من أحد أو منع من سلطة.

ذلك لأن الطواغيت "أولئك الذين يعتدون على ألوهية الله سبحانه حين يدّعون لأنفسهم حق الملكية والجبروت على الناس، وحين يمنعون الناس أن يختاروا ما يريدون حينما يدعون إلى الحق" هؤلاء الطواغيت يقومون بدور خطير، وهو دور المحاربين لله، الصادين عن سبيله، القاهرين لعباده كي يعبدوا غيره ويخضعوا لسواه، ولذلك كان من أولى خطوات الأمة المسلمة حين يمكنها الله، أن تسعى إلى إزاحة هؤلاء الطواغيت، كي تخلص الأرض كلها لمالكها الحقيقي وهو الله سبحانه، ولكي يعطوا للناس الفرصة كاملة أن يختاروا ما يبتغون؛ إما الحق وإما الضلال.

من أجل ذلك كان الجهاد كما يراه سيد قطب استقاء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فهو يرى أن الجهاد لا يصح أن نصفه بأنه هجومي أو دفاعي.. ولكنه أمر آخر غير ذلك، فهو يراه جهادا تحريريا لتحرير النوع الإنساني من كل الضغوط التي تحول بينه وبين ربه وتوحيده، ومن ثم فهو مطلوب دائما، سواء اعتدى الكافرون على ديار

المسلمين أم لم يعتدوا، لأن إزالتهم من الوجود هو مطلب أساسي لهذا الدين.. وكان هذا هو ما فهمه سلفنا الصالح، حتى أن الفقهاء يرون أنه لزاما على خليفة المسلمين أن يخرج للجهاد كل عام مرة على الأقل ليحرر أرضا جديدة، ويحرر أناسا جددا، لتحقيق أهداف هذا الدين، ويكون الدين كله لله.

الثاني عشر: ولعل هناك موضوعا يفرض نفسه علينا حين نتناول موضوع الجهاد؛ ذلك هو ما يخص **قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، تلك الفريضة العظمى التي ندب الله إليها المسلمين في قوله سبحانه ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾.

لقد كان حديث سيد قطب حول هذه النقطة شيقا وممتعا، فضلا على جدّته بالنسبة لنا نحن القادمين من دهاليز "الإخوان المسلمون".

والذي ينظر إلى مناهج العمل الإسلامي يجد أن هناك منهجين رئيسيين يسودان ساحة العمل للإسلام:

فالمنهج الأول: وهو منهج الإخوان المسلمون ومن سار على دربهم، والمتمثل في المقولة العجيبة وهي "مالا يدرك كله لا يترك كله"، ومقولة أخرى وهي "شيء أحسن من لا شيء" وتلوّن هذه المقولات موقف الإخوان المسلمون في الدعوة إلى الله.. حيث أنهم يتركون للناس أن يطبقوا من الإسلام ما يقدرون عليه أيا كان حجمه وقيمته، وغير مبالين أيضا لما يتركه الناس أيا ما كان حجمه وطبيعته وقيمته.

فهو منهج متساهل لا يجد عضاضة في قبول أي وضع من الأوضاع، وارتضاء أي قدر من الأعمال، فالناس عندهم دائما مسلمون ما داموا قد نطقوا بـ لا إله إلا الله، بصرف النظر عن حقيقة الاستسلام والتطبيق لدين الله في الواقع.

والمنهج الثاني: ذلك المنهج الذي قد يرى حقيقة الواقع بصورة أعمق وأشمل، ويحدد إلى حد ما طبيعة الداء الذي تعانيه الأمة، ويدرك التصور الإسلامي إدراكا أكثر نصاعة وإحكاما.. ولكنه يقع في الخطأ من ناحية أخرى حيث يرى أنه ملزم بإقامة كل تكليف من تكاليف الشريعة، وإقامة كل حد من حدودها فور إيمانه بهذا الحق، غير آبه لكل العقبات الحقيقية التي تقف دون ذلك وتجعل هذه المحاولة مستحيلة تماما، فضلا عن استنزافها الجهد كله والتضحيات كلها في الأنفس والأموال والأعراض وكل شيء.. وغير آبه أيضا ولا ملتفت إلى أنه لم يعط للناس الفرصة الكافية ليدركوا ماذا يريد هؤلاء الدعاة، وإلى ماذا يدعون؟

هذان المنهجان يمثلان الخطين العريضين اللذين يسودان العمل الحركي الإسلامي، وكلاهما قد وقع في انحراف خطير عن طبيعة التصور الإسلامي وطبيعة المنهج الإسلامي الذي يحقق هذا التصور في عالم الواقع المادي والمعنوي في نفس الوقت.

يقول الأستاذ سيد إن دين الإسلام كله هو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولكنه يرى أن منهج الأنبياء كان دائما يركز على القواعد والأصول قبل أن ينتقل إلى الفروع، كما أن يرتب التكاليف، فيأمر بالأهم فالمهم، ويرسخ الأساس قبل تشييد البناء عليه.

لذلك فإنه يرى أنه من الضروري أن نرتب هذه التكاليف، وأن نستلهم التجربة الأولى التي أشرف عليها الوحي، وقادها رسول الله ﷺ، لكي نرى كيف كانت خطواتهم نحو ترسيخ الأسس وإقامة الصرح الشامخ فوقها.. وكيف بدأوا العمل، وما هي خطواته الأولى، وما تلاها من خطوات، وماذا قدم وماذا أخرّ من التكاليف والتوجيهات والأوامر والنواهي..

ذلك لأنه يرى أنه حين تتشابه الظروف والملابسات، فلابد من الاقتداء الكامل، وذلك مقتضى القياس الصحيح.. ولما كان الإسلام الآن يعاني غربته الثانية، والظروف تتشابه إلى حد كبير مع الغربة الأولى، أصبح من الطبيعي أن نستلهم من التجربة الأولى خطواتها، مع حساب العوامل المتغيرة أو الجديدة.

فإذا كان توصيف الواقع المعاصر الآن هو أن الأرض كلها تعيش في حالة الجاهلية، وأن التاريخ يعيد نفسه وقد دار دورته، فإنه يصبح لزاما علينا أن نبدأ بما بدأ به رسول الله ﷺ، وقد علمنا أن المعروف الأكبر الذي دعا الناس إليه أولا هو توحيد الله.. وأن المنكر الأكبر كان الشرك بالله.. ولم ينتقل إلى معروف آخر ولا نهى عن منكر آخر قبل أن يطمئن إلى وضوح الأصول الأولى وحتى يعرف الناس ربهم كما ينبغي فيوحدونه ويتخلصون من الشرك، ويعد ذلك وليس قبله يبدأ في مطالبتهم بمعروف آخر يلي ذلك في الأهمية ويأخذ دوره في التكليف، كما أنه ينهى عن منكر آخر يلي ذلك في الخطورة، ويأخذ دوره في أيضا في التكليف، وهكذا ينتقل من معروف أكبر إلى معروف أقل منه، وينهى عن منكر أكبر ثم ينهى عن مكر أصغر منه. وهكذا حتى يصل إلى نهاية الطريق ويتحقق من خلال حركة الجماعة المسلمة في الواقع تطبيق شرع الله كله كل في وقته وظروفه.. وهذا ما نلمسه حين نرى التدرج العجيب في التشريعات والأوامر والنواهي حسب ظروف الجماعة المسلمة الأولى وحسب طاقاتها واستطاعتها.. ولقد تأخرت تشريعات هامة جدا تمس الأخلاق والسلوك والمجتمع إلى وقت متأخر يقف الإنسان أمامه متعجبا، لولا أنه يعلم أن الله هو الذي قرر ذلك فلا يملك إلا الإذعان والطمأنينة والرضى، لأن الله هو العليم الخبير بعباده فلا ينبغي لمؤمن أن يستعجل أمرا أخرّه الله أو أن يستأخر أمرا عجله الله..

فقد تأخر تحريم الخمر إلى السنة السادسة من الهجرة، كما تأخرت آيات الحجاب إلى نفس السنة، كما أن الأمر بتطليق الكوافر تأخر أيضا.. أما الربا فقد كان آخر آيات الأحكام..

ولا معنى لكل هذا إلا أن الله سبحانه وهو ينقل خطوات الجماعة المسلمة كان يعلم ظروفها الصعبة ويعلم حجم طاقاتها واحتمال قدراتها ولذلك كان ينزّل شرائعه في الوقت المناسب تماما رحمة بالعباد وإعانة لهم على الالتزام.

فحين يتكرر الظرف، وتبدأ حركة البعث الطريق من أوله، فإنه لا بد أن تراعي في تكليف الجماعة المسلمة طبيعة الظروف التي تمر بها، وتراعي أيضا حجم الطاقات الموجودة فعلا ومدى احتمالها، حتى تستطيع أن تواصل الطريق إلى نهايته.

وليس معنى ذلك اقتفاء آثار الجماعة الأولى في تدرج التشريع على إطلاقه، ولكن المطلوب هو حساب الضرورات التي تبيح المحظورات، والمشقة التي تجلب التيسير، وقاعدة تعارض الواجبات، وقاعدة النهي عن المنكر إذا تعارض مع منكر آخر أكبر أو أصغر، وقاعدة درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة، وقاعدة المصالح المرسلة.. وهكذا... فقواعد هذا الدين وأصوله سوف تحدد للجماعة المسلمة منازل التكليف وترتيب التكاليف من خلال الاستطاعة والإمكانية.. وهذا الموضوع يحتاج تقعيدا طويلا ليس هذا مكانه.. ولكن الذي نخرج به من هذه العجالة هو أن ينبغي على الجماعة المسلمة وهي تتحرك أن تحدد الأولويات التشريعية والفقهية من خلال القواعد التي ذكرناها، والتي تستطيع دائما أن تمدّ الجماعة المسلمة في كل أطوارها بالحلول المناسبة، التي تصبح في مرحلتها هي التكليف الآني الذي يتغير حين تتغير الظروف والملابسات.

ولا ننسى أن هذا المنهج ليس خاصا بظروف النشأة وتطورها فقط، بل هو دائم العمل في حياة الجماعة المسلمة في كافة أطوارها من ضعف أو قوة، فهو دائما يسعف الأمة المسلمة بالحكم العملي الذي يكافئ الظرف الطارئ.. كما يحدث حين يوجب شرب الخمر إذا توقفت عليه الحياة أو أكل الميتة مثلا.. فيتحول المحرم إلى واجب تبعا للظرف الطارئ، ويظل أمر الضرورة المشروعة هو الذي يقرر طبيعة الحكم المناسب.. وهكذا..

غير أنه في مراحل النشأة وحالات الاستضعاف تكثر الظروف الصعبة الطارئة، وتتعدد المواقف الاضطرارية، فتظهر ظاهرة المرحلية في الأحكام وتبدو الحاجة ملحة لترتيب التكاليف، وذلك كله بسبب غياب السلطة الإسلامية وتعرّض الجماعة المسلمة للاضطهاد بسبب عقيدتها ومنهجها، مما يجعلها في أكثر أحوالها في حالة الضرورة التي تبيح كثيرا من المحظورات التي تختفي بمجرد زوال أسبابها.

الثالث عشر: ومما سمعناه من أستاذنا الكريم وشهيدنا العظيم **نظرته إلى معنى النصر والانتصار** وصلة ذلك بالخلوص إلى الله والتجرد من كل حظوظ النفس ليكون العبد عبدا ربانيا يعمل لله ويقاتل في سبيل الله ويموت من أجل الله.

وكان الأستاذ الحبيب يؤكد على معنى كبير وهو تجريد العبودية لله عز وجل فلا يكون للإنسان مراد مع مراد الله.. لذلك كان يرى أن من أخص خصائص العبودية ألا يكون للعبد رأي ولا اقتراح ولا اختيار مع قرار الله وحكمه ومشيئته وقدره، فنحن عباد الله يفعل بنا ما يشاء، والله سبحانه لا يقضي إلا بالخير والحق والعدل والرحمة، ومن ثم فليس للمسلم الصادق أن يقترح على الله شيئا ولا يختار بعد ما اختار الله له، وعليه أن يخلّص

نفسه ابتداء من حظوظ نفسه فيجعلها تتساوق مع قدر الله ومشيئته، وكما قال رسول الله ﷺ "**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**"[٢].

لذلك فعلى المسلم أن يلتزم أمر ربه ويجتهد قدر استطاعته، ثم يوكل الأمر كله لله يقضي به بما يشاء ويدع النتائج لله يقررها كيف يشاء، فذلك شأن الألوهية وليس من العبودية في شيء أن يتطلع العبد إلى شيء من خصائص الألوهية، فإن لله الخلق والأمر، الله يفعل ما يريد، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ومن ثم كان كل المطلوب من العبد هو الالتزام الراضي الخاضع لما يأمر به الله، ثم ينتظر ما يجري به قدر الله، فهو الخير دائما، وهو الحق والعدل والرحمة أيا كان هذا القدر، صادف ما يهوى العبد أم يكره ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾(البقرة-٢١٦) صدق ربنا العظيم.

والجماعة المسلمة حينما تنطلق تدعو إلى الله، وتحتمل الأذى والعذاب في سبيل الله، وتقاوم قوى الشر والكفر ما استطاعت، وتجاهد لإعلاء كلمة الله، فعليها أن تدرك وتوقن أن الكلمة الأخيرة في أمر هذا الجهاد لله عز وجل، هو الذي يقرر طبيعة المعركة ونتائجها، أما المؤمنون فهم أدوات لقدر الله يصنع بهم ما يشاء، وأي مصير يختاره الله لعباده، وأي صورة يرضاها الله لهم، وأي نتيجة يقدرها الله لجهادهم فهي حق وعدل في ذاتها وهي الخير لهم، وليس لهم أن يشترطوا على ربهم ولا يختاروا على اختياره لهم بل يفوضون الأمر لله وهم واثقون أن الله أعلم بما ينفعهم وما ينفع دينه، لذلك كان معنى النصر عند سيد قطب كما استلهمه من كتاب ربه وسنة رسوله ﷺ أن النصر يكمن في استسلام الجماعة المسلمة لما يريده الله بها، والرضاء الكامل بأي نتائج يقدرها الله لها ما دامت قد بذلت وسعها في الالتزام بما أمرها الله به في أمر عقيدتها ومنهجها، وفي أمر نفسها ومن حولها، وسواء كان النصر المادي على الأعداء أم كانت الشهادة في سبيل هذا الدين فكله سواء لدى المؤمنين لأن غايتهم تحقيق عبوديتهم لله، وهي قد تحققت حين استسلموا له ولقدره، وكان الأستاذ يستشهد بتلك الآية في سورة الصافات ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ {١٠٣} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ {١٠٤} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {١٠٥}**﴾.

وكان يستشهد بأصحاب الأخدود الذين قضوا حياتهم في سبيل الله واستشهدوا محرّقين بالنار التي أوقدها عليهم الكفار.. فالمطلوب من المؤمن أن يستسلم لله كما استسلم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن رأى إبراهيم الرؤيا من ربه، وأخبر بها ولده إسماعيل أنه يرى أنه يذبحه.. وكيف أن الأب وابنه لم يترددا في تنفيذ الأمر الإلهي، وكان مقتضى إيمانهما هو ذلك الاستسلام العظيم الراضي لأمر الله، حتى ولو كان أمرا صعبا.. وحين يحدث ذلك الاستسلام لله.. يكون العبد قد نجح في الاختبار ولم يعد هناك ضرورة لإنفاذ الابتلاء، بعد أن تمت

[٢] الحديث قال ابن كثير في التفسير: خرجه الحسن بن سفيان، وقال ابن حجر رجاله ثقات وصححه النووي في الأربعين.

الحكمة منه، لذلك نزل الفداء على إبراهيم ونجا إسماعيل من الذبح ليواصل مسيرة الإيمان والبلاغ، ولينبت من ذريته العرب المستعربة العدنانية التي توجت برسول الله ﷺ.

أما أصحاب الأخدود فقد حققوا نصرا عظيما حينما آثروا العقيدة على الحياة وآثروا الآخرة على الدنيا، وآثروا الحق على الباطل، واستسلموا لقدر الله وثبتوا رغم الحريق الهائل الذي كان يشوي أجسادهم.

إن النصر الحقيقي هو الثبات على الحق وإيثار مراد الله على مراد النفس.

والانتصار الحقيقي هو ذلك الاستعلاء بالإيمان على الموت وعلى التعذيب وكل تضحية في ذلك السبيل، فهي ثمن قليل مقابل الجزاء العظيم.

وكما يعبر أستاذنا الكريم أننا أجراء عند الله، والله يفعل بنا ما يشاء، وأجرنا مضمون بصرف النظر عن النتيجة، والأجر هو رضوان الله سبحانه، والتمتع بالنظر إلى وجهه الجليل، وما أعظمه من أجر وما أجله من جزاء.

الرابع عشر: وللأستاذ رأي في **أمر الثقافة وأمر الحضارة**، وهذا الرأي نابع من تصوره لقضية الألوهية ومنبثق انبثاقا طبيعيا من إدراكه لمعنى العبودية ومتناسقا تماما مع مقام الإنسان من الله، وما يترتب على هذا من حركة في مجال الثقافة ومجال الواقع، أما بالنسبة للثقافة فهو يرى أن كل تفكير أو تصور أو مبدأ لا يقوم على قاعدة لا إله إلا الله وينهل من معينها ويحقق مقتضاها فهو فكر جاهلي منحرف لا صلة له بالإسلام، كما أن أي تلق من أي مصدر غير مصدر الله – وهو القرآن الكريم أو سنة رسوله الكريم ﷺ – فهو انحراف عن طريق هذا الدين وعن حقائقه وأهدافه.

والمسلم لا يجوز له أن يتلقى في أمر حقائق الوجود؛ كحقيقة الله وحقيقة الكون والحياة والإنسان، لا يجوز أن يتلقى في شأنها إلا من المصدر العلوي الذي يعلم الحقيقة كما هي في الواقع، ولكن حينما يستقل الإنسان في شأن هذه الأمور بعقله وتجاربه، فإنه حتما سوف يضل ضلالا بعيدا.. والفلسفة إنما هي تاريخ التخبط البشري في عالم التصورات والأفكار والحقائق ولم تستطع تلك الفلسفة في تاريخها الطويل أن تمدّ الإنسان بالعلم الحقيقي عن هذه الحقائق الكبرى.

والكتاب والسنة هما مصدرا هذه الحقائق ومنبعها، وليس بعدهما إلا الضلال والتخبط ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** ﴾(يونس-٣٢).

وحين غزا العالم الإسلامي الفكر الغربي والثقافة الغربية، وأصبحا مصدرين من مصادر الثقافة فيه، بل أصبحا في الحقيقة هما المصادر الأعلى نتيجة التخلف والضعف والهزيمة المادية والروحية التي اغتالت الوجود الإسلامي والأمة الإسلامية، فإن الغزو الفكري الأوروبي أصبح هو صاحب السيادة في عالم الفكر والثقافة..

حتى أن كثيرا من تلك الكتب والمؤلفات التي كتبت لتشرح الإسلام وتعبر عنه تأثرت بهذا الغزو واقتبست منه واعتمدت مقولاته ومناهجه، فخرجت تلك الكتب والمؤلفات بعيدة عن روح الإسلام وحقائقه، وأصبحت أسيرة الغزو الفكري أي أنها بتعبير دقيق أصبحت ثقافة جاهلية منحرفة.

لذلك لا بد للمسلم الذي يريد الحق أن يبحث طويلا وفي تريث عن تلك المؤلفات التي كتبت على أساس المنهج الإسلامي الصحيح ووفق المقاييس الإيمانية الصحيحة، و إلا سيقع أسيرا في قبضة الثقافة الجاهلية المتسربلة بثوب مزيف من الإسلام ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** ﴾(الكهف-٢٨).

أما عن الحضارة فهو – في إيجاز شديد – يرى أن الإسلام هو الحضارة وأن المجتمع المسلم بمواصفاته الصحيحة هو المجتمع المتحضر، أما بقية المجتمعات فهي مجتمعات متخلفة أي كان لونها وشكلها.

وهو يرى أن أساس الحضارة الحقيقية هو الإيمان الصحيح بالله عز وجل والقيام بحق الألوهية وعمارة الأرض على أساس هذه الحقيقة وحدها وما ينبثق منها من قيم وموازين وآداب وفنون وتعليم واقتصاد وسياسة وعلاقات، والعبرة في تحديد الحضارة هو ذلك التطابق بين الواقع وحقيقة الوجود بصرف النظر عن ذلك التقدم المادي والأبهة المادية، فهي لا تعدو أن تكون عرضا من الممكن أن يستغنى عنه ولا يؤثر في الجوهر سلبا ولا إيجابا، فالمجتمع الإسلامي مجتمع متحضر سواء وهو ينعم بكل منجزات التقدم المادي أو وهو خلو منها.. والمجتمع الجاهلي الذي لا يقوم على قاعدة لا إله إلا الله مجتمع متخلف وهمجي ولو حاز كل منجزات التقدم المادي أو خلا منها.

وهكذا تكون المجتمعات الأرضية على مدار التاريخ خاضعة لهذا المقياس الدقيق لتتحدد هويتها وماهيتها وحضارتها أو تخلفها.

وعلى هذا المقياس تبدو كثير من المجتمعات التاريخية قديما وحديثا والتي تعتد بأنها مجتمعات متحضرة تبدو على ضوء هذا المقياس مجتمعات غارقة في التخلف والهمجية والضياع رغم كل الزخرف المادي التي تتحلى به.

الخامس عشر: يبقى موضوع أخير وهو **كيف نتلقى الإسلام وكيف نتعرف عليه؟**

وتتوقف على هذه الإجابة في رأي سيد قطب أمر الهدى والضلال، وأمر إدراك الحق أو الدخول في المتاهة التي تفقد الإنسان القدرة على رؤية الحق.

ماذا كان يفعل الأنبياء حين يبعثهم الله إلى أقوامهم وقد ضلوا السبيل وتاهوا في بيداء الكفر والجاهلية؟؟ كيف كانوا ينظرون إلى واقع تلك الأقوام وقد تركوا دين الله وراءهم ظهريا وبدلوا نعمة الله كفرا، ونبذوا شرع الله وأحلوا مكانها أهواءهم وأمزجتهم، وأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله، وفرقوا خصائص الألوهية على آلهة شتى يعبدونها ويخضعون لها من دون الله، وانقادوا للطواغيت تذل رقابهم وتزين لهم الباطل وتدفعهم إلى الشهوات يلغون في مستنقعها العفن حتى لا يفيقوا أبدا ولا يرفعوا رأسا؟ ماذا كان الأنبياء يقولون لتلك الأقوام الضالة وهذه الفئام الهابطة؟ هل كانوا يربتون على أباطيلهم، ويتجاهلون دلالة تصرفاتهم ويغمضون أعينهم عن تناقضاتهم، ويبحثون لهم عن مخارج تخرجهم عن كفرهم وشركهم وعصيانهم، ويخترعون الأدلة والبراهين التي تنفي عنهم ظلمهم وفسقهم وكفرهم؟

كلا والذي خلق السماوات والأرض بالحق.. لقد كان الأمر واضحا وضوح الشمس في كبد السماء، ظاهرا ظهور البدر في الليلة القمراء.. لقد نظروا فوجدوا الناس قد جهلوا مقام ربهم، واستهانوا بجلال مولاهم وخالقهم، ونسوا يوم الحساب؛ يوم يقوم الناس لرب العباد، وانساقوا وراء الشيطان يزين لهم كل قبيح ويبرر لهم كل باطل، ويتركهم مع ذلك يظنون أنهم مهتدون.

لقد رأى الأنبياء أن الناس تعيش في ظلام وضلالة، وأنهم لا يفرقون بين الحق والباطل، وأنهم خرجوا بكليتهم من دائرة العبودية لله إلى العبودية للعباد كما قال يوسف لصاحبي السجن ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾(**يوسف–٣٩**).. **وكما قال إلياس ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ {١٢٥} اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ {١٢٦} ﴾** (الصافات–١٢٦).

حينذاك رأى الأنبياء الصفحة أمامهم سوداء مظلمة، ومن ثم دعوا الناس إلى النور الذي جاءوا به من عند ربهم فكانت دعوتهم للناس أن أخرجوا من الظلمات إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان.

ولقد أمر الله رسله جميعا أن يفاصلوا قومهم ويعالنوهم بأنهم ليسوا في دين الله، وأن عليهم أن يدخلوا في دين الله ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {١} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ {٢} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {٣} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ {٤} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {٥} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ {٦}** ﴾.

وحين تتكرر الصورة وتتشابه الظروف فإن الموقف هو هو، لذلك كان موقف الأنبياء من أقوامهم مكرورا هو بعينه وكان موقف الأقوام مكرورا أيضا.. ذلك لأن الصورة واحدة والظروف واحدة..

وهكذا يرى سيد قطب أن الأرض كلها الآن تعج بالجاهلية، وأنها في حاجة إلى رسالة جديدة لولا كلمة سبقت من الله أن لا نبي بعد محمد ولا كتاب بعد القرآن..

لذلك وجب على دعاة الحق أن يسلكوا سلوك الأنبياء، فيدعوا أقوامهم إلى الدخول في الإيمان، والانتهاء عن الشرك كله بأنواعه كلها.. شرك الخلق وشرك الاتباع وشرك الاستعانة، فالناس غارقون في كل أنواع الشرك رغم نطقهم بلا إله إلا الله.

ويرى الأستاذ سيد قطب أن الهدى لا يتحقق إلا لإنسان قد امتلأ قلبه بالتوجه الصادق لله، والتلقي المذعن من الله، والإحساس العميق بجلال الألوهية وعظمتها وهيمنتها على الوجود كله، ويدرك بكل قلبه وخلجات نفسه عظم الفارق الذي لا سبيل إلى الإحاطة به بين الوجود البشري والوجود الإلهي..﴿ **ليس كمثله شيء**﴾.. ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾.. ﴿ **الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ** ﴾..

إن هذا الإحساس يجعل القلب البشري والعقل البشري يدركان أن هناك صورة واحدة للإيمان الحق، وهي الإذعان الراضي والتلقي اللاهف والإقبال المشوق لأمر الله وحكمه، فالذي يحس هذا الإحساس يدرك حقيقة الواقع البائس الذي تعيشه البشرية، ولا يجد نفسه يلهث وراء ثغرة ينفذ منها ليبرئ هذه البشرية الجاهلية المتعجرفة المستهترة الفاسقة.. إنه يرى حق الله العظيم الجليل.. ويستشعر روح العبادة الحقيقية ومذاقها، ولا ينخدع بأشكالها وقوالبها، ويرى بكل جلاء ووضوح ما يرتبه هذا الغثاء من تمرد على الله وخروج على دينه ونقض لعهده، ولا يتعاطف أبدا مع هذا المروق ليذهب باحثا عن مخرج ينجي هؤلاء من وصمة هذا المروق..

إن غيرته على الله سبحانه، وعمق إجلاله لذات الله سبحانه، وامتلاء قلبه بهيبة الله وعظمته، ومعرفته بكبرياء الله التي يرتجف لها الوجود كله ويخضع لها الكون كله.. كل ذلك يجعله لا يتردد في أن يرى الواقع على حقيقته، ويتلقى نصوص كتاب الله بما تستحق من فهم وإدراك، فلا يصرفها عن وجوهها، ولا يتمحل الهروب من مقتضياتها ويأخذ هذه النصوص بالاحترام الواجب لها، وبالجد اللائق بها، فلا يواجهها بمقررات مسبقة، ولا يخضعها لرغبة طارئة، ولا يؤوّلها حسب هوى طائش، ولا يعطلها حتى لا تعمل فيما يكره.. كلا.. ينبغي أن تتلقى كلمات الله بما تستحق من الجلال والإكبار لأنها جاءت لتهدي الناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ثم فهي مضيئة بذاتها، واضحة بنورها، وعلى الإنسان أن يتلقاها هكذا ليعرف ربه ودينه والواقع الذي حوله.

وكان يقول لنا إياكم ودهاليز الفقه حين تريدون أن تتلقوا العقيدة، لأن الفقه أودية متشعبة، ومفاهيم بشرية لنصوص ربانية. فضلا عن أن الفقه ينشأ دائما بعد أن يعرف الناس ربهم ويؤمنوا به ويخضعوا لأمره، ثم بعد ذلك وليس قبل ذلك ولا معه يأتي دور الفقه الذي يحدد للناس أحكامهم العملية في حياتهم بهذا الدين الذي آمنوا به.

أما هؤلاء الذين يدخلون من باب الفقه ليتعرفوا على العقيدة فإنهم يجدون أنفسهم بين أرتال الخلافات، وجمهرة من الآراء التي لا تتحدث عن العقيدة بقدر ما تتحدث عما بعد اعتناق هذه العقيدة، ويبدو هذا الأمر أكثر حاجة في عصور الضلال والفتن والارتداد عن الدين جملة وتفصيلا..

إن الذي بقي في حياة الناس هو قشور هذا الدين وبعض مظاهره، وحتى هذا بقي في حالة جفاف وتعطل وموات، بحيث لا تغير منكرا ولا تقيم معروفا، فهم سادرون في جاهلية ككل جاهليات التاريخ التي تظل عالقة بالماضي في صورة أشكال جوفاء وتعصب فارغ، بينما هي خالية تماما من جوهر الدين وحقيقته.

ومن ثم يكون دور الدعاة كدور الأنبياء، أن يخرجوا الناس أولا من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الضياع إلى الوجود.. ثم بعد ذلك يأتي دور الفقه حين يستقر الأمر في الناس كما حدث أول مرة.

الفصل الثالث

سيد قطب والحركة الإسلامية

في هذا الفصل أنقل بعض ما سمعته من الأستاذ الكريم عن قصة التوجه إلى الإسلام، ومن ثم ارتباطه بجماعة "الإخوان المسلمون" وما تلا ذلك من أحداث ومواقف كوّنت رأيه الأخير في هذه الجماعة.

ولسنا في حاجة إلى أن نقول إن سيد قطب كان في صدر شبابه، بل منذ طفولته، صاحب شخصية متميزة، وقرارات منفردة، ولعل من يقرأ قصة "طفل من القرية" يلمح تلك الخطوط المبكرة التي ترسم صورة شاب المستقبل.

في رأيي أن مفتاح شخصية سيد قطب يكمن في ذلك التعبير الذي أستملحه لأصف شخصية هذا الرائد العظيم.. وهو "**الاستعلاء المتحدي**" نعم لقد كان رمزا للاستعلاء على كل ما يراه باطلا، وكان رمزا للتحدي لكل ما يواجهه من عقبات، ثم تأتي بعد ذلك صفاته الأخرى الرائعة والكثيرة. فقد كان مع ذلك الاستعلاء والتحدي إنسانا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، وكان ذكيا لماحا يدرك أعماق النفوس وأعماق الكلمات وأعماق المشاعر بصورة سهلة وتلقائية عجيبة، وكان مع ذلك حييا يقطر حياء، وتبدو على وجهه تلك الملامح العجيبة إذا مدحه أحد أو جامله أو قدم له معروفا، وفوق ذلك كان حماسه حماس شاب في العشرين حين كان في الخامسة والخمسين. أما مكانته مؤلفا وكاتبا وشاعرا وناقدا فأظن أنها فوق الجدال.

من هذا المنطلق كان تقييمه لجماعة الإخوان المسلمين؛ سألته: كيف كانت بدايات صلته بالإخوان المسلمين؟ قال لي: كنت في بداية الأمر لا أستريح لهذه الجماعة ولا لمرشدها، ولعل السبب في ذلك عدة أشياء، منها؛ أن من التقيتهم من الإخوان لم يكونوا نماذج مقنعة، بل كانت نتطبع في نفسي عنهم صورة غير مريحة، نتيجة لبعض تصرفات لهم كنت أرى أنها لا تليق أن تصدر من رجال دعوة إسلامية.

وسبب ثان؛ أني علمت أن المرشد العام أمر الجماعة بألا تقرأ مجلة "الفكر الجديد" التي كنت أرأس تحريرها، ولم أدر سببا لذلك وعزوته إلى عدم وعي، أو تعصب.

وأضاف: ومضت الأيام وكنت بدأت أكتب بعض الكتابات الموصولة بالإسلام مثل "التصوير الفني في القرآن"، ثم "مشاهد القيامة في القرآن"، ثم بعد ذلك بدأت في كتابة "العدالة الاجتماعية في الإسلام" الذي خرج إلى الوجود في عام ١٩٤٩م. انتهى كلام الأستاذ سيد قطب.

كانت هذه أولى محاولات الأستاذ الكريم في ولوج ساحة الفكر الإسلامي بعد أن انتهت معاركه الحامية مع أساطين الفكر والأدب في مصر أمثال: العقاد وطه حسن ومصطفى الرافعي والمازني وغيرهم، وكان فارس الميدان بلا منافس.. ثم كانت تلك الخطوات نحو كتابات إسلامية تعكس رغبة في البحث عن الهوية الأصيلة لإنسان مسلم.. ثم سافر بعدها إلى أمريكا في دراسة لبرامج مدارس الأحد كابتعاث من وزارة المعارف المصرية، وربما كان ذلك تخلصا منه في حقيقة الأمر وإبعادا له عن البلاد.

وكانت هذه الرحلة القصيرة التي دامت قرابة العامين فرصة عظيمة لسيد قطب، كي يطّلع على حقائق كثيرة، أهمها حقيقة العداء والكيد الجاهلي ضد الإسلام وضد كل ما هو إسلامي.. وتفتحت عينه وهو الذكي اللماح على كمّ هائل من الحقائق المذهلة حول العالم الغربي والحضارة الغربية، كما أدرك أيضا حقائق مذهلة عن أوضاع العالم الذي جاء منه.

وكما أخبرني أن المخابرات الأمريكية والانجليزية كانتا تتنافسان عليه باعتباره نجما لامعا في سماء مصر، وقد كانت أمريكا تعد العدة لكي تحل محل بريطانيا في إدارة الأمور في الشرق الأوسط، وعلى رأسها مصر بطبيعة الحال، وكانت بريطانيا من ناحية أخرى تريد أن تترك لها رجالا في مصر بعد انسحابها أمام قوة أمريكا الفتية، وكانت سيد قطب يحس بهذا وذاك، ويزداد وعيا بالحقائق التي بدت أمامه واضحة جلية.

ومما لاحظه في هذه الفترة الزمنية القصيرة.. أنه كانت تقدم على مسارح أمريكا استعراضات تمثيلية تسخر من الملكية في مصر وتبرز فضائح الأسرة المالكة في مصر حينذاك وعلى رأسها الملك فاروق، وقد كان هذا عجيبا لم يفسره إلا قيام الثورة في عام ١٩٥٢م، تلك الثورة التي صنعتها أمريكا، لذلك كانوا يحطمون صورة النظام الملكي في مصر؟؟ لقد كانوا يمهدون لقدوم العسكر ليكونوا أدوات التغيير الجديد في الشرق الأوسط.

وأمر آخر لاحظه وشد انتباهه؛ أنه حين قتل حسن البنا في فبراير عام ١٩٤٩م وقدمت رأسه هدية للملك في يوم عيد ميلاده، لاحظ سيد قطب الفرحة الغامرة التي سادت كل الولايات المتحدة الأمريكية بمقتل ذلك الرجل وخاصة من المخابرات الأمريكية والإنجليزية على السواء.. لقد كانت فرحة حقيقية بتخلصهم من هذه الشخصية التي تزعمت الدعوة إلى عودة الإسلام من جديد.

ولقد كان لهذه الملاحظات دور في توجه سيد قطب بكليته للحركة الإسلامية، وزالت من قلبه تلك المشاعر النافرة من جماعة الإخوان المسلمين، وأدرك أنه لو لم يكن حسن البنا مخلصا وصادقا ويمثل خطرا حقيقيا على الجاهلية لما فرحت أوساط الأعداء كل هذه الفرحة، ولما رقصوا في الشوارع إعلانا لهذه الفرحة الغامرة.

ومما زاد الأستاذ سيد احتراما لحسن البنا، أن اكتشف بعد أن ترك مجلة الفكر الجديد إثر خلاف بينه وبين إدارتها أو أصحابها، أن هذه المجلة كانت خاضعة لتوجيهات سفارة أجنبية أوروبية.. حينذاك أدرك لماذا منع حسن البنا أتباعه من تداولها والتعامل معها.

وهكذا تكونت في نفس سيد قطب وهو عائد من رحلته تصورات جديدة عن العالم، وعن الإخوان المسلمين، كما بدأ يشعر بأنه واحد من الدعاة إلى الإسلام، أو على الأقل يجب أن يكون كذلك.

ولقد كان لاستقبال الإخوان له لدى عودته إلى مصر أثر كبير في قراره العمل في سبيل الإسلام مع جماعة الإخوان المسلمين.

وكان الأستاذ سيد قطب قد كتب في تقديمه للطبعة الأولى لكتاب "العدالة الاجتماعية" إهداء جاءت به هذه الكلمات:

"إلى الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديدا كما بدأ، يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويقتلون، مؤمنين في قرارة نفوسهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، إلى أولئك الفتية الذين لا أشك لحظة أن روح الإسلام القوية ستبعثهم من ماضي الأجيال إلى مقبل الأجيال في يوم قريب جد قريب."

سيد قطب

ولما قرأ الإخوان المسلمون هذا الإهداء ظنوا أنهم هم المقصودون بتلك الكلمات، فمن ثم كان ذلك الاستقبال الرائع الذي لقيه الأستاذ سيد من قبل الإخوان وشبابهم لدى عودته إلى مصر.

وبعد انضمام الأستاذ سيد إلى الإخوان غير في كلمات الإهداء في الطبعات التالية من كتاب "العدالة الاجتماعية" فصارت كما يلي:

"إلى الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين فوجدتهم في واقع الحياة قائمين.. يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، مؤمنين في قرارة نفوسهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

إلى هؤلاء الفتية الذين كانوا في خيالي أمنية وحلما فإذا هم حقيقة وواقعا، حقيقة أعظم من الخيال وواقع أكبر من الآمال.

إلى هؤلاء الفتية الذين انبثقوا من ضمير الغيب كما تنبثق الحياة من ضمير العدم وكما ينبثق النور من خلال الظلمات.

إلى هؤلاء الفتية الذين يجاهدون باسم الله، في سبيل الله، على بركة الله. أهدي هذا الكتاب."

سيد قطب

وانضم سيد قطب إلى جماعة الإخوان المسلمين، وعمل في صفوفها بكل ما يملك من الإيمان والصدق، وانطلق بكل طاقاته وقدراته يسخرها للإسلام والجهاد في سبيل الإسلام، ولقد وثق به مرشد الجماعة الجديد واعتبره من أهم من يعتمد عليهم في الجماعة التي شاء القدر أن يخلف على زعامتها حسن البنا.

ولقد ضاق كثير من الإخوان القدامى بهذا الاصطفاء لسيد قطب ولبعض الشخصيات التي قربها المرشد الجديد، لأن المرشد رأى فيه ما يعتقد أنه في حاجة إليه في قيادته للجماعة.. ولقد كانت خطابات كثيرة تصل إلى المرشد العام وإلى سيد قطب تعبّر عن هذا الاستياء، تصل في بعض الأحيان إلى مستوى الشتائم.. كما قال لي رحمه الله.

ولكنه ظل يعمل غير عابئ بكل هذه المحاولات الصغيرة، ولكنه كان يتعجب من أن تكون هذه أخلاقيات من يعملون للإسلام.

وقامت الثورة.. ثورة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢م، تلك الثورة التي ما كانت لتقوم لولا مساندة الإخوان المسلمين لها، الممثلة في ضباط من الجماعة كانوا أعضاء في حركة الضباط الأحرار، وهم الذين قاموا بأخطر الأدوار أثناء الانقلاب في القاهرة والإسكندرية، كما كانت ممثلة في شباب النظام الخاص الذين تولوا حراسة المنشآت العامة ليضمنوا نجاح الثورة.

ولقد لقي الإخوان جزاء سنمار حين استهدفتهم الثورة، وطاردتهم في كل مكان، وأودعتهم السجون والمعتقلات بعد أن علقت رؤوسا منهم على حبل المشنقة تقربا للسادة في البيت الأبيض وفي الكرملين.

نعم في أول الأمر تملق الثوار الجدد الجماعة، وركزوا على سيد قطب، وكانوا يلقبونه بالأب الروحي للثورة، وكانوا يترددون عليه يأخذون رأيه في كثير من الأمور، وكانوا يدعونه في بعض الأحيان إلى بعض الاجتماعات، بل عرضوا عليه أن يتولى أمر هيئة التحرير التي أنشاؤها لتحل محل الأحزاب، على أن تنضم إليهم جماعة الإخوان وتذوب في هيئة التحرير.

ولقد حسن ظن الإخوان بهذه الثورة في أول الأمر، ولكن سرعان ما تفاقمت الخلافات، وظهر جمال عبد الناصر على حقيقته كما تحكي مذكرات صلاح شادي وأحمد عادل كمال ومحمود عبدالحليم.

المهم أن سيد قطب اصطلى مع جماعة الإخوان المسلمين المحنة كاملة، وكان من المقرر أن يعدم سيد قطب مع الذين أعدموا عام ١٩٥٤م، ولكن إرادة الله شاءت أن يمرض مرضا شديدا قبل المحاكمات، مما اضطرهم إلى

تأجيل محاكمته، وتم إعدام الستة الشهداء دون أن يكون سيد قطب منهم، ليلحق بركب الشهداء بعد ذلك باثنتي عشرة سنة.

ولكنه دخل السجن ليقضي مدة عقوبة قدرها خمس عشرة سنة، ولما كانت صحته لا تحتمل فقد أودع في مصحة سجن ليمان طره، وهناك استكمل تفسير الظلال بعد أن رفعت مؤسسة الحلبي على الحكومة قضية تطالب فيها بالسماح لسيد قطب بإكمال التفسير الذي تعاقد عليه مع المؤسسة، وكان قدر الله الذي أتاح لسيد قطب أن يستكمل الظلال، ثم ينقحه ليبثه ذلك التصور الذي فتح الله به عليه، وذلك المنهج الذي دعا إليه، وكان فتحا جديدا في عالم الفكر الإسلامي، ودفعة جديدة للحركة الإسلامية، وردا لها إلى أصولها الصحيحة في التصور والمنهج وإدراك المعركة وإدارتها.

ثم كان لقاؤنا به في صيف عام ١٩٦٢م لتبدأ مرحلة جديدة في حياة سيد قطب وفي حياتنا وفي حياة جماعة الإخوان.

ماذا حدث بعد لقائنا بسيد قطب؟

كان لقاؤنا بسيد قطب نقطة تحول لكثير منا.. وحين أتحدث بصيغة الجمع فإني أعني هنا تلامذة سيد قطب الذين أكرمهم الله بالتلقي والسماع منه، ولقد هدانا الله على يديه، وفتح بصيرتنا على أمور كانت جديدة علينا بصورة كاملة.. وأحب أن ألفت النظر إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي أن الذين تلقوا من سيد قطب ليسوا شبابا عاديين جاءوا من المجتمع الفارغ المترهل الجاهلي.. ولكنهم شباب أعضاء في جماعة تعمل من أجل الإسلام، ثم هم – حين التقوا به – كانوا يمرون بمحنة السجن والابتلاء في سبيل دعوتهم، وهؤلاء الذين تتلمذوا على يديه خاصة كانوا من الذين مرّوا باختبارات شتى في غاية الشدة والصعوبة، وأجازهم الله منها على خير، وثبتوا أمام الإرهاب والإغراء على السواء، معتصمين بما آمنوا به من الحق.. لهذا كان هؤلاء الشباب حين التقوا بسيد قطب قد قرأوا كثيرا، وفكروا كثيرا، ومرّوا بمواقف شتى، وذاقوا ألوانا من المحن الفكرية والنفسية، جعلتهم أكثر صلابة وأكثر حرصا وأكثر حذرا أيضا، لأنهم أصبحوا في درجة من الرشد الذي يجعلهم لا يتبعون كل ناعق، ولا يجرون وراء كل نداء إلا بعد أن يمحصوه جيدا.. وأقول هذا الكلام حتى أؤكد حقيقة أننا حين التقينا بسيد قطب كنا قد بلونا جماعة الإخوان، وعرفنا حسناتها وسيئاتها، وأدركنا عظم المهمة الملقاة على عاتقنا، وكنا فوق ذلك نحس بالظمأ إلى الحقيقة التي كنا نشعر حينذاك بأنها بعيدة عنا، وكان كل منا يبحث بطريقته الخاصة عن الشيء الناقص الذي لا يدريه تماما.

وحين التقينا بسيد قطب وسمعنا منه، وعرضنا الأمر على أنفسنا وعقولنا وتجربتنا، تأكد لنا أن الرجل على حق، وأنه قد وضع أيدينا على ذلك الشيء الذي كان ينقصنا وكنا له ظامئين.

فلا يصح أن يقال عن تلامذة سيد قطب أنهم شباب جاهل ضحل لم يفهموا ما قيل لهم ولم يفكروا فيه.. كلا.. إن الأمر خلاف ذلك تماما..

ولقد كان الواحد منا يرجع إلى إخوانه بعد لقائه بسيد قطب إنسانا جديدا مختلفا تماما عما كان عليه من قبل وكأنه قد خلق خلقا جديدا، فتبدلت نظرته للحياة وللإسلام وللأوضاع وللحكومات وللناس.. كما تغيرت مشاعره ومذاقاته لكل شيء..

وكان الواحد منا يحس بحيوية دافقة، وفرحة غامرة، حين يشعر بأنه قد أمسك بأول الخيط الذي يهديه إلى الله، ووضع قدمه على الطريق الحق الذي يوصله بالله، وتسري في كيانه كله مشاعر الطمأنينة والسكينة، ويمتلئ قلبه بشعور العزة بالحق والاستعلاء بالهدى الذي هداه الله إليه، ويتمنى لو يستطيع أن يبلّغ هذا الحق لكل الناس، ويخرجهم من الضياع والسطحية والعماية التي يعيشون فيها وهم لا يشعرون.

وفي هذه الفترات القصيرة التي عشناها مع سيد قطب قرأنا كل ما يمكن قراءته من الكتب التي تشرح هذا الحق وتبينه، وأذكر أنني قرأت في هذه الفترة القصيرة – وهي ثلاثة شهور تقريبا – ما يزيد على خمسين كتابا وجهني إليها الأستاذ الكريم، فكنت أجالسه نهارا وأعكف على القراءة ليلا فما كان يصفو لي من النوم أكثر من ثلاث ساعات كل يوم.

ورغم ذلك كنت أشعر بالحيوية وصفاء الذهن وتألق الروح في هذه الفترة التي مرت كالرؤى الجميلة، ولكن ما لبثنا أن صحونا منها لنجد أنفسنا في سجن القناطر الخيرية.

رجعنا إلى إخواننا في القناطر نحمل كل هذا الجديد، وكان في نفسي إحساس عميق بأن ما أحمله هو بمنطق الأشياء ثورة كاملة وانقلاب خطير، سيواجه بالتأكيد برفض كامل أيضا.

ولم أكن متفائلا كما كنت أشعر من سيد قطب ومحمد هواش.. كانوا يأملون أن يتلقى الإخوان هذه التصورات الجديدة وهذا المنهج الجديد بالترحيب والانشراح.. ولكني كنت على عكسهما تماما.. كنت أشعر من خلال خبرتي الطويلة وسط الإخوان بأنهم لن يقبلوا منه حرفا واحدا.. وقلت يومها تعبيرا قد يكون قاسيا وعنيفا، ولكن لا بأس من أن أثبته في هذه الصفحات.. قلت لهما "سوف يرفض الإخوان هذا الحق كما رفضته قريش أول مرة".

ولقد صدقت الأحداث ظني، وقامت قيامة الإخوان ضد هذا الحق، ولم تقعد حتى لحظة كتابة هذه السطور.. والكل يعلم كيف أنهم في النهاية فصلوا كل من يمت إلى هذا الفكر بصلة من الجماعة.. ثم نشروا كتابا باسم المرشد العام يدين هذا الفكر ويصمه بالخروج والانحراف.

كانت وصية الأستاذ سيد لنا أن نبلغ هذا الأمر إلى قيادة الجماعة في القناطر في هدوء، وألا نحدث فتنا بين صفوف الجماعة بتصريحات مثيرة أو نقاشات حادة. وكنا ثلاثة نحمل هذا الحق الثقيل، وتواصينا على الالتزام بوصايا أستاذنا.. وحين ذهبنا إلى القناطر التقيت بالأخ المسئول وكان يومذاك الأخ الطوخي محمد طه، وجلست معه قرابة خمس ساعات ألقيت بين يديه كل ما تحمله نفسي وعقلي، وسلمته أيضا الكتب الكثيرة التي احتملتها معي، ولقد كان موقفه رائعا حيث صدّق على كل ما قلته، وقال: هذا هو الحق الذي كان تدور حوله أفكاري وتهفو إليه نفسي.. ووجهني أن أبلغ هذا الأمر لمن أجده أهلا له دون إحداث ما يثير، وأنه سيكون خلفي يؤازرني ويحميني.. ولقد صدق الرجل طيلة صحبتي له حتى الآن فكان من رواد هذا الحق الثابتين عليه الذابين عنه جزاه الله عنا خيرا.

ولكن حدث من الأخوين الآخرين بعض التصريحات المثيرة التي أحدثت فرقعة مبكرة، وبدأ يسري في جو سجن القناطر تيارات ساخنة، تشنع على هذا الحق وتدعو لرفضه وتوضح خطورته، وبدأ الإخوان يتصلون بالقيادات الكبرى في سجن الواحات الخارجة يبلغونهم بتلك الأفكار الجديدة على الجماعة ممثلة في هذه الأفكار الواردة من سجن ليمان طره.

ولكن الأمور سارت رغم ذلك في خط صاعد يؤيد هذا الحق الجديد رغم كل هذه العواصف.. وجاءتنا رسالة من المرشد العام يدعو فيها للانتفاع بما جاء في الظلال، ويقرر "أن ما في الظلال مقالة حق"، كما جاءت رسالة أخرى من أحد أعضاء مكتب الإرشاد وهو الأستاذ عبد العزيز عطية الذي كان يرأس أعضاء المكتب في هذه الفترة تدعو الجميع للانتظام في البرامج التربوية والثقافية التي كانت قد بدأت في سجن القناطر على ضوء ما أوصى به الأستاذ سيد قطب.

وهكذا بدا الأمر كما لو كان قد استقر، وأنشأنا أسرا لدراسة المنهج الجديد والتصورات الجديدة، وسرت روح جديدة في الجماعة تنهل من هذا المعين الجديد..

لكنني في الحقيقة لم أكن مطمئنا إلى ما يحدث، فقد كنت أحس أن قلة قليلة هم الذين أخذوا الأمر بجد. أما الباقي فقد كان تلقيهم لهذا الأمر واهنا ضعيفا يتحمس أحيانا ثم ما يلبث هذا الحماس أن ينطفئ، فضلا عن أن قدرة الإخوان على استيعاب الأبعاد والأعماق الحقيقية لهذا الحق كانت ضئيلة للغاية.. ولا عجب في ذلك فقد كانت النقلة بعيدة، وكانت الوراثات الإخوانية التي عاش بها أفراد الجماعة لا تعينهم على عبور الفجوة الواسعة بين هذا الفكر الجديد وبين أفكارهم القديمة، وما يترتب على هذا من أعباء جديدة، وترتيب للعلاقات جديد، إلى آخر مقتضيات هذا التصور الجديد علينا لشهادة أن لا إله إلا الله.. لذلك كان الجهد المطلوب جهدا كبيرا، لا تكفي فيه تلك المجهودات الضئيلة التي كنا نقوم بها نحن الشباب.. كان الأمر يحتاج دفعا كبيرا من

القيادات العليا، ويحتاج جهدا في التثقيف والتربية تتبناه الجماعة، كما يحتاج من الأفراد استعدادا حقيقيا لأعباء هائلة ثقيلة.

ولكن لم يحدث شيء من هذا، وسارت الأمور بهذه المجهودات الضعيفة، وانتظم الأفراد في أسر ثقافية تربوية، وامتنعت مجموعة من الأفراد تبلغ أكثر من عشرين فردا عن الانصياع لهذا الأمر معارضين هذا الفكر الجديد.. (كان عدد الأفراد في سجن القناطر يقارب المائة والعشرين).

ولم يطل بنا الوقت لكي نرسخ هذه المفاهيم الجديدة ونعمقها في القلوب، فقد بدأت الإفراجات لمن أنهى عشر سنوات من العقوبة، وكنا كلنا كذلك ما عدا خمسة أو ستة أفراد فقط كانت أحكامهم أكثر من ذلك.

ولقد حدثت أثناء حركتنا بهذا الحق بين أفراد جماعة الإخوان في القناطر وأثناء تبليغنا لهذا الفكر الجديد، حدثت أخطاء كثيرة منا، فقد كان الحماس يوقعنا في مطبات خطيرة كنا نشعل بها الفتنة القائمة ونزودها بالوقود. وكان هذا الحماس الزائد المندفع نتاجا لجهلنا، بإصدار آراء وأحكام تبدو لنا صحيحة ومهمة، ولكن كنا نردّ عنها بتوجيهات من الأستاذ الكريم.. كما كانت لنا تصرفات مثيرة كانت سابقة لأوانها أو مخالفة لطبيعة المنهج الذي كنا ندعو إليه.

وأنا الآن لا أراه شيئا غريبا ذلك الذي كان.. لأن أي فكرة جديدة تحتاج حضانة طويلة حتى تستقر بكل أعماقها وأبعادها.. لذلك كان أمرا طبيعيا أن تحدث أخطاء في التفكير وفي التطبيق على السواء، نتيجة العجلة والحماس وعدم الوضوح الكامل لكل الأبعاد.. ولقد كان وجود الأستاذ سيد حيا ذا أثر كبير في تصحيح الأمور أولا بأول، سواء في مجال الفهم أو في مجال التطبيق.

وسأضرب **أمثلة لبعض هذه الاندفاعات الخاطئة** في مجال الفهم والتطبيق حتى نتبين من خلالها ضرورة وجود القيادة الخبيرة العملية التي تحتوي الأفراد وتصحح مسارهم وأخطاءهم حتى يستووا راشدين.

١ . اندفع بعضنا إلى المساس بشخص الإمام حسن البنا، حتى وصل البعض إلى حد تكفيره.. وذلك لأنهم رأوا أنه لم يكفر الطاغوت، بل كان يضفي عليه أحيانا صفة الإسلام.. وكان أيضا يتعامل مع الأحزاب ويدخل المجالس النيابية.. وكان يرى إسلام هذه الجماهير الضالة، وأنه أيضا دخل حرب فلسطين من خلال الأوضاع والأنظمة الكافرة.. وغيرها من ملاحظات على الإمام الشهيد رحمه الله.

ولكن الأستاذ سيد قطب وقف وقفة شديدة أمام هذه الانحرافات المبكرة والاندفاعات المدمرة. فنهانا بشدة عن هذه التجاوزات، وأفهمنا أن الإمام الشهيد كان يدعو إلى التوحيد وإلى تحكيم شرع الله وجاهد في ذلك حق الجهاد، وبذل أقصى ما يستطيعه بشر في ذلك السبيل، وضحى بحياته راضيا في سبيل الله، فهو إمام عظيم أدى الأمانة بقدر ما استطاع جزاه الله عنا خيرا.

أما تلك الأخطاء التي وقع فيها الإمام الشهيد وجماعته فهي من باب الاجتهاد المأجور، ومن التأويل الخاطئ والفهم الخطأ لبعض الآيات والأحاديث، تأثرا بالواقع الذي كانت قد وصلت إليه المجتمعات "الإسلامية" حينذاك.. فحين قامت جماعة الإخوان لم يكن قد مضى على سقوط الخلافة إلا خمس سنوات. فلم يتبين حسن البنا في خضم الأحداث الحقيقية الواقع، مما أدى إلى سلسلة من الأخطاء المترتبة على ذلك، ولكنه مأجور على كل حال إن شاء الله. ثم إنه في أيامه الأخيرة ورسائله الأخيرة كان قد بدأ يلحظ بعض هذه الأخطاء، وبدأ أيضا في تصحيحها لولا أن توفاه الله شهيدا في سبيل هذا الحق.

٢ . اندفع بعضنا في تكفير أهله الذين كانوا يزورونه، وفي إبلاغهم أنهم خارج دين الله.. وأدى ذلك إلى ضجة هائلة وسط الجماعة، ووصل ذلك إلى آذان الأستاذ سيد، فأرسل إلينا يحذرنا بشدة من هذا الاندفاع الخطير، ويبين لنا أنه ليس مهمتنا إصدار الأحكام على الأعيان بهذه السهولة والجرأة، وأننا ينبغي أن نتريث جدا في إصدار حكم بالكفر على أحد إلا أن نتبين موقفه تماما.. فضلا عن أن ذلك مناف لمنهج البلاغ الذي يدعونا إلى بناء جسور بيننا وبين الناس، لكي نتمكن من توصيل الحق إليهم، ولكي نمكنهم من السماع الهادئ الذي يجعلهم يعون ما يقال لهم.

ونحن مأمورون أن نحسن الصلة بالناس جميعا، وأن نبني بيننا وبينهم تلك المعابر التي تفتح قلوبهم للحق، وليس معنى ذلك أن نجاملهم حين يكون الأمر أمر بلاغ، ولكن نهيئهم لهذا البلاغ لنصدع معهم بالحق ولكن في مودة، ولا ننسى أثناء ذلك أنهم ليسوا على شيء، وأننا حريصون على هدايتهم لأننا نحبهم.

٣ . كذلك اندفع البعض – مجتهدا – متصورا أننا في هذه المرحلة التي هي أشبه ما يكون بالمرحلة المكية التي لم ينزل فيها أحكام، لن نتمكن إلا من الواجبات والتكاليف الفردية، أما التكاليف التي يتوقف العمل بها على وجود نظام وسلطة، فإننا مرغمون على تأجيلها حتى نصل إلى التمكن.. ومن ذلك الحدود وكثير من التشريعات في مجال الاقتصاد والتعليم والعمل والوظائف وغير ذلك.. وأضاف بعضنا فرض الزكاة باعتباره فرضا اجتماعيا تجمعه الدولة وتوزعه. وأدى ذلك إلى نقاشات حادة ومعارك حامية خشية أن يمتد ذلك إلى بقية تكاليف الإسلام فتتعطل عن العمل، وفي هذا إضاعة للدين وإسراف في القياس الخاطئ. ونبهنا الأستاذ الكريم بشدة إلى مثل هذه القياسات الخاطئة. وعلمنا أن الاجتهاد لا بد أن يبنى على قواعد شرعية تراعى فيها كل الضوابط الأصولية الفقهية. ولا بد أن نفقه النصوص كما نفهم الواقع، ثم ننزل النص على الواقع المناسب، أو أن نعمل النص في محل النزاع أو التكليف.. وهذا يحتاج إلى حياة أطول في ظل هذا الدين الحق، وتكيف به، ويظل محتاجا لشروط معينة تعطي صاحبها حق الاجتهاد، فالزكاة كما أن الأصل فيها أن يجمعها الإمام.. فإنها أيضا يمكن أن تخرج في أي وقت وتوزع حسب المصارف الموجودة المتاحة، وقد تعطى لقيادة الجماعة المسلمة تنفقها في مظانها الشرعية، كما تتقوى بها على احتياجات الجماعة الحركية أو حاجات أفرادها. المهم أنه يمكن إخراجها في أي وقت حسب الظروف.

٤ . وهناك قضية أخرى حدث فيها اجتهاد مثير وهي مسألة صلاة الجمعة.. فقد اجتهد البعض مندفعا إلى عدم صحة صلاة الجمعة ما دمنا في دار لا تحكم بشرع الله، ولسبب ثان هو عدم ثقتنا بهؤلاء الأئمة الذين يؤمون الناس لأنهم لا يدركون معنى لا إله إلا الله ويوالون الطواغيت ولا ينكرون المنكر الأكبر وهو شرك الحاكمية.

وهذا الكلام صحيح، ويضاف إلى ذلك أقوال الفقهاء الذين يضعون شروطا محددة لأداء صلاة الجمعة يرجع إليها في كتب الفقه، ومنها حالة السفر وحالة الفتنة وحالة السجن والانحصار في مكان مغلق، كما أن منها ألا تقام إلا بإذن الإمام، وفي المسجد الجامع الذي يحظى بحماية الإمام، وفي المصر أيضا الذي يخضع لشرع الله.. حتى أنهم يرون ألا تقوم الجمع في القرى النائية والكفور والعزب الصغيرة.

المهم أننا اجتهدنا وقررنا إعلان عدم وجوب صلاة الجمعة. مما أثار زوبعة عنيفة.. وجاءتنا التوجيهات أن صلوا مع الناس ثم صلوها ظهرا بعد ذلك، فامتثلنا للأمر، وكانت علة ذلك أنه لا يجب أن نثير قضايا جزئية ومعارك صغيرة تعمّي بغبارها على الحقيقة الكبيرة، كما أنها تعلو عن إدراكهم وفهمهم، لذا لا يجوز إثارة تلك الزوابع من أجل ألا نصدّ الناس عن سماع الحقيقة الكبرى وهم – أي الناس – إذا أدركوا الحقيقة الأساسية سيتوصلون وحدهم إلى إدراك بقية تلك القضايا الخطيرة التي كانت تمس التصور والمنهج والبلاغ والسلوك.

وكان من فضل الله علينا أن كانت فترة التدريب هذه بين جدران السجون وتحت بصر القائد الخبير، فلم يكن لها مضاعفات كبيرة، ولكنها أفادتنا كثيرا، حيث تعلمنا منها دروسا هامة في الحركة والسلوك وطريقة الاستنباط والفهم للنصوص وإيقاعها على الواقع.

وبدون مقدمات معلنة أفرج عن الأستاذ سيد قطب والأستاذ محمد هواش، ثم توالى بعد ذلك خروج العشرات الذين أنهوا مدتهم. وقد تبين بعد ذلك أن الهدف من إخراجهم هو الإعداد للتخلص منهم كما أثبتت الأحداث بعد ذلك!

بدأنا نستعد للخروج وتعاهدنا قبل خروجنا على أن نواصل العمل من أجل الإسلام، وعرف كل منا مكانه، وتوكلنا على الله عز وجل رغم ما نعرفه من عواقب مثل هذا الاتفاق، ولكن لا بد مما ليس منه بد، والأمر لله من قبل ومن بعد.

وكنت من أواخر الإخوة خروجا من السجن، فقد خرجت في ١٩٦٥/٧/١٣ م ولكني وجدت الأجواء متوترة، والغيوم تخيم على الأحوال كلها.. وأحسسنا جميعا أن هناك تدبيرات للحكومة للزج بنا مرة أخرى في السجون، وكان يبدو أن هناك اتفاقا على ذلك مع المخططين الكبار، وكان ذلك ثمنا لاستمرار عبد الناصر في الحكم كما علمنا بعد ذلك.

وقد كانت الإشاعات تملأ الأجواء بأن هناك نشاطا للإخوان تحت السطح، وأنهم ينتخبون لهم مرشدا جديدا، ورشحوا بعض الأسماء، وكان واضحا أن الشيوعيين وراء هذه الإشاعات تؤازرهم الحكومة بأجهزتها الاستخبارية، ثم نمى إلى علمنا أنهم قبضوا على محمد قطب أخي سيد قطب، ثم توالى القبض في هدوء، وظل يتسع قليلا قليلا حتى شمل الجميع، وقبض عليّ في مساء يوم ١٩٦٥/٨/١١ م أي أنني لم أمكث في الخارج إلا ثمانية وعشرين يوما فقط.

ثم أعلن عبد الناصر وهو في زيارة له إلى موسكو ومن فوق الكرملين القبض على جماعة الإخوان المسلمين ليثبت لأسياده إخلاصه الشديد وولاءه العميق للكفر والإلحاد ضد الإيمان والإسلام. وتوالت الأحداث، واكتشف تنظيم عام ١٩٦٥م الذي كان قد تسلمه الأستاذ سيد قطب ورضي بإمارته منذ شهور قليلة سابقة، وبدأ الإعلام يدق طبول الحرب على الإسلام والمسلمين. وبعد مرحلة التحقيق الطويلة المليئة بالتعذيب والتنكيل، وعقدت المحاكمات، وفوجئ العالم بنوعية جديدة من الشباب المسلم الذي يعلن في استعلاء وتحد جاهلية المجتمع وكفر الحكام والإصرار على إقرار حاكمية الله في الأرض.

وقد كان هؤلاء الشباب من خيرة شباب مصر وكانوا يحتلون أخطر المراكز الحساسة.

وقد أحدث ذلك صدمة عنيفة للحكومة ولأوساط الجاهلية في الداخل والخارج. وبدأ العالم يفيق على أنباء الجماعة المسلمة الجديدة التي ولدت في أحضان فرعون وفي حجره، ورغم أنفه، لتقوم بهذه القوة والصلابة تعلن الحق وتستعلي به، وتتحدى كل القوى، وأرجعوا بذلك ذكرى هؤلاء السحرة الذين آمنوا بموسى وتمردوا على فرعون قائلين له في وجهه بلا خوف ولا تردد ترد ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ (طه-٧٢).

وانتهت هذه المحاكمات كما عرف العالم كله بإعدام الثلاثة الكبار الذين قادوا مسيرة هؤلاء الشباب، وسقطوا شهداء في ميدان العزة والكرامة من أجل الحق ومن أجل الله.

وهكذا طويت صفحة حياة سيد قطب.. العالم الشهيد.. الذي رفع لواء الحق، وصدع في وجه الجاهلية بكلمة التوحيد، غير هياب ولا وجل.. وظلت بسمته الرائعة تطل على الكون، لتقول للناس جميعا ﴿**قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ** ﴾ (يس: ٢٦. ٢٧).

- الشيخ مصطفى كامل محمد حسين ..
- مواليد القاهرة - يناير ١٩٣٦م - شوال ١٣٥٤هـ ..
- إلتحق بجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥٢م وكان عمره ١٦ عاما..
- إلتحق بكلية الآداب عام ١٩٥٤م ولم يكمل دراسته إلا بعد خروجه من الإعتقال ..
- قضى بالسجن ١٧ عاما من ١٩٥٥م - ١٩٧١م إلتقى خلالها بالأستاذ سيد قطب في مايو ١٩٦٢م ..
- عمل محاضرا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة لمدة ٢٤ عاما بكلية الدعوة وأصول الدين ..
- عاد بعدها عام ١٩٩٧م ليستقر في مصر ..